عادل المعيزي

مذكرات روائية

العودة إلى العصر الحَجْري
كتابة في زمن الوباء

الموجة الأولى

KAMEL LAZAAR
FOUNDATION

العودة
إلى العصر الحَجَري

عادل المعيزي

العودة إلى العصر الحجري

كتابة في زمن الوباء

الموجة الأولى

مذكرات روائية

الكتاب:

العودة إلى العصر الحجري

النوع

مذكّرات روائيّة

المؤلّف

عادل المعيزي

© حقوق النشر محفوظة للمؤلّف

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة اصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من المؤلف والناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجّهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام المؤلف. تستثنى أيضا الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

© Copyright 2020

تصدر هذه الطبعة الالكترونية الأولى بدعم من مؤسسة كمال الأزعر الثقافية

الثلاثية الثالثة 2020

تدمك ISBN 978-9938-59-302-0

لوحة الغلاف الأخير للرسام بول لورنزي بعنوان الظل والدمية

عنوان البريد الالكتروني: adelmaizi@yahoo.fr

إلى منيرة شقيقتي

تواصل حَجْرًا ذاتيًّا منذ أكثر من نصف قرن

- 1 -

الاثنين 23 مارس 2020

لم تكن كل الأيّام سيئة! لحسن الحظ أنّ الحياة كانت تتواصل ولو بتثاقل، في بقيّة العالم.

كانت أغنية يوسف التميمي «أم شعر حرير» تنبعث من مكان ما عندما نظرتُ إلى ساعة هاتفي ووجدتُ الوقت قد تأخّر، فتحتُ الخزانة فصاحت ملابسي بصوت واحد: «هل مازلتَ حيّا؟» غيّرتُ ملابس النوم التي ظللتُ أرتديها دون انقطاع منذ إعلان ما سُمّي بـ «الحجر الصحّي» وخرجتُ بعد أربعة أيام من المكوث في البيت لشراء بعض الحاجيات الضرورية لطفليّ مجد ومايا. كان الوقت زوالا وكانت السماء ملبّدة بالأفاعي التي لم تغادر كوابيسي منذ عقود طويلة مشيرة إلى أمر جلَلٍ يحدث في المستقبل. وقد أثبتَ ذلك الكابوس كلّ ما حدث طوال السنوات التي أعقبت ظهوره لأوّل مرّة في أحلامي... وجدتُ الحيَّ مُقفرا والمحلاّت مغلقة. كنت بصدد المشي على الرصيف متفكّرا في هذه «الكارثة العولميّة» التي حلّت بنا دون أن تنتظرها الانسانيّة، رغم المؤشّرات التي كانت تظهر هنا وهناك ورغم التحذيرات

التـي كان يطلقهـا مناضلـو البيئـة بالرسـائل اليوميـة التي كانـت تصلني إلـى بريـدي الالكترونـي. كانوا يستعيرون صـوت الأرض المستغيث ليقومـوا بإعلامنـا بمـا يتـمّ مـن جرائـم يوميـة ضـدّ الغابـات والأنهـار والبحـار، وضـد الهـواء والتـراب، وضـد الأطيـار والحيوانـات البريـة والزواحـف والأسـماك، وضـد الـذرّات والالكترونـات والبروتونـات، وضـد الجبـال والربـى والسـهول... كنـتُ أمشـي إلـى أن اقتربـتُ مـن شـخص كان ينتعـلُ حـذاء رياضيًّـا ويمشـي قبالتـي. كان يحمـل فـي كيـس بلاسـتيكيٍّ أسـود عـدّة مفاهيـم، ويبـدو أنّـه كان يُسَـخِّرُها باحتقـارِ مُؤْمِـنٍ لمحاربـة أيّ خطـر داهـم. كان ينظـر إلـيّ بعينيـن لامعتيـن يعلوهمـا الحـذرُ والتشـكّكُ. وعندمـا بـدأتُ أشـعر بالتوجّـس بسـبب الاحتمـال الـذي جـال فـي خاطـري والمتعلـق بامكانيّـة حملـه لعـدوى فيـروس «كورونـا المستجد» الـذي ينتشـرُ بطريقـة سـريعة وغامضـة بيـن جميـع البشـر فـي كلّ بقـاع الدنيـا، وقبْـل أن أصـل إليـه وعلـى حيـن غـرّة، قفـز إلـى الرصيـف المُقابـل لأدرك أنّنـي أصبحـتُ لا أختلـف كثيـرا عـن الإرهابـي الحامـل لحـزام ناسـف والمُترفّـع فـي حالـة مـن الغيبوبـة الدينيّـة، عـن محـض الوجـود المستقل بذاتـه، كمـا لـو أنّ العفّـة التـي يبحـثُ عنهـا فـي فـرج الحوريّـة التـي ستسـتقبله بالزغاريـد المقدّسـة فـي أحـد أبـواب الفـردوس، سـتجعله يقـذف قبـل أن يولـج آلتـه التناسـلية التـي كانـت العضـو الوحيـد الـذي سَـلِمَ مـن تفجيـر الجسـد!

حيـن وصلـتُ إلـى مغازة الحـي كان عليّ أن أقف فـي الطابور تفصلني مسـافةُ متـر عـن الـذي يتقدّمنـي ومتـر آخـر عـن الـذي يتأخّـر عنّـي.

فتجربة «البُعد الاجتماعي» هذه، هي صلة الوصل بين المكان والزمان. إذ أنّ العالم يُقدّم إلى الانسان كلّ لحظة تجربة الحدود. فالحصر أو الحصار هو شعور بانتفاء المسافة، ولكن في التجربة التي نعيشها لا يتمثّل الحصارُ في انتفاء المسافة وإنّما في زيادة اتساع المسافات بين الأفراد وبين الدول عبر هذا التباعد الذي حتّمته الظروف، إذ انتقم فيروس كورونا المستجد من «عولميّةٍ» ألغت المسافات بين الأفراد والجماعات والدول وحوّلت العالم إلى «قرية صغيرة» كما يقول أهل السياسة وعلماء الاجتماع، بل إنّ الفيروس ينتقم منها كأُفهوم ضَغَطَ على الزمن وقارب على إلغائه. واكتشفتُ حينئذ وأنا في الطابور أنّ جسدي لم يلامس جسدا آخر في الشارع منذ أكثر من أسبوعين لذلك شعرت بالضيق لأنّ دخولي إلى العالم في كل مناسبة، يمنحني إدراكا جديدا لمسافة البعد. فحميميتي تدفعني دائما لمصافحة الأصدقاء أو تقبيل الصديقات أو معانقة الأحبّة حتّى أنّي شعرتُ بظمأ ما شبيه بالجوع إلى شيء غامض، لم أفهمه إلا حين صرت في مقدّمة الطابور والحارس البدين ذو وجه العُقاب بالبزّة الزرقاء المكتوب عليها «sécurité» يومئ لي من بعيد لأدخل إلى المغازة.

ما إن تجاوزت باب الدخول حتّى وجدتُ المحلّ مقفرا. جبتُ لوحدي بين الأروقة واقتنيتُ ما وجدت وسألتُ العامل ذو العينين الكاسرتين الذي يُغطّي أنفه وفمه بكمّامة قماشية حتّى غدا رأسه مثل علبة حليب في شهر الصيام، فردّ عليّ من بعيد ليُخبرني بعدم وجود لا الدقيق ولا السكّر وكنت أشعر طوال وجودي في

المغـازة بالضيـق. منـذ الطفولـة ثمـة إحسـاس يولـدُ معنـا وينتابنـا كلّمـا شـعرنا بـأنّ هنـاك أنظـارا مصوّبـة نحونـا. لذلـك أيقنـتُ أنّنـي فـي مرمـى رصاصـات الحـرّاس المسـتعدّين لـكل طـارئ إن حـدث وأن تهـوّرتُ ومـددتُ يـدي لأضغـط علـى حزامـي الناسـف وكأنّهـم يسـألونني بصـوت واحـد

ـ ما الذي أتيتَ تفعله هنا؟ ما الذي تُريدُهُ منّا؟

وعندمـا تفرّسـوا فـي جسـدي وجدتُنـي أقـعُ في ارتبـاك كبير لأنّـي كنتُ أعلـم حـقّ العلـم مـا الـذي كانـوا ينـوون فعلـه لستُ أدري كيـف؟ لكنّـي كنـتُ أعلـمُ ذلـك مسـبّقا... تراجعـتُ إلـى الـوراء وركضـتُ باتجـاه الشـارع وركـض خلفـي عمّـال المغـازة وذلـك الحـارس ضخـم الجثّـة ذو وجـه العقـاب، وتَبِعَـهُ كلّ مَـنْ كان خلفـي فـي الطابـور ثـمّ بقيّـة سكّـان الحـيّ الذيـن خرجـوا مـن بيوتهـم حفـاة عـراة حتّـى أحسسـتُ «بحـي الإذاعـة» الـذي أقطنـه كلّـه علـى كتفـي وكان قلبـي يخفـق بصـوت مرتفـع وبـدت لـي وجوههـم مثـل رسـوم الفنّـان التشـكيلي أبـو العبّـاس عبـد الله Abouabes Abdallah فـي مجموعـة رسـومه بعنـوان «الوجـه الآخـر مـن مخطـوط مريـم» وفجـأة انفتـح أمامـي طريقـان ولـم أعـرف أيّهمـا أختـار وكان الحفـاةُ العـراةُ يصرخـون فـي وجهـي كلّمـا التفتُّ لهـم وهـم يلوّحـون بعصيّهـم وحجارتهـم وأسـلحتهم السـوداء والبيضـاء والرماديّـة: كورونـا! كورونـا! ك وفيـد! كـو... رشيد!

- رشيد! يا رشيد كلّم الأستاذ ليتقدّم إلى «القابض» هكذا صرخ فزعا مراقب العَمَلَة!

كنتُ قد تهتُ بين نوم ويقظة وأنا أنتظر دوري لأدفع ثمن المشتريات عند القابض رشيد الذي وجدته على غير العادة منقبض الأسارير. عندما أتممتُ مُهمّتي بكل دقّة خرجتُ عائدا إلى البيت دون أن ألتفت إلى الوراء إذ بدا لي أنّ مُجرّد مغادرتي البيت يُشَكّلُ تهمةً حَرِيَّة بالملاحقةِ.

- 2 -

الثلاثاء 24 مارس 2020

أفقتُ هذا الصباح وفكرة تجول في خاطري مفادها أنّ أسوأ ما في الأمر الذي نحن فيه لا يتمثّل في أنّ العالم لم يَعدْ حُرّا، ولكن في أنّ الانسان نسي ما تعلّم عن الحرية! إذ أنّ جميع مَن تمتّعوا بالحرية لأقل من عشر سنوات في تونس هم أنفسهم من يطالبون بالحد من حرية التنقل وحرّية التواصل والاتصال وحتّى حرية التعبير... وهم أنفسهم مَنْ يضغطون على الحكومة لتطبيق القوانين القديمة بقوّة السلاح إنْ لزم الأمر. جال بصري في سقف الغرفة وفي جدرانها العارية من كل لوحة تشكيلية أو تحفة تزيّنها وقد بدا عليها الاصفرار واكتشفتُ أنّني لم أقم بدهنها منذ عشر سنوات... حتّى الأثاث بدا مترهّلا. لم تكن علاقتي بالبيت حميميّة بالشكل الذي يجعلني أهتمّ بتفاصيله فهو لم يكن يُستعمل إلا لسماع الأغاني أو للنوم عندما نعود إليه على مشارف مدينة منّوبة في المساء من تونس العاصمة مقرّ أعمالنا وأنشطتنا. وقبل أن تنجب سلمى «مجدًا» في السنة الثانية للثورة، ومن بعده بثلاث سنوات «مايا»، لم نكن نستعمل المطبخ إلا نادرا إذ كانت

غالبيـة حياتنـا خـارج البيـت ومنـذ خمـس سـنوات عندمـا شـرعنا فـي بنـاء بيـت صغيـر بحديقـة فـي قليبيـة تغيّـرت إليـه وجهتنـا فـي نهايـة كلّ أسـبوع وخـلال العطـل المدرسـية وفـي الصيـف حتّـى أصبـح بيتنـا هـذا عبـارة علـى ترانزيـت. وقفـتُ فـي البلكونـة بـرأس محـنٍ وأنـا أنتظـرُ أن ينتهـي الكابـوس رغـم يقينـي أنّ الطريـق مازالـت طويلـة. ولمحـتُ قطّـا شـاردا يبـول إزاء نبتـة متوسّـطة الطـول تشـبه أشـجار البلاسـتيك، وبـدا لـي أنّـه يبـول علـى الصمـت المخيّـم علـى الإقامـة التـي تحتـوي أكثـر مـن سـتين شـقّة. جعلنـي الصمـت أشـعر بالخـوف وبالاختنـاق إذ وجـدتُ الإقامـة خاليـة مـن السـكّان وأنـا الوحيـد الباقـي علـى قيـد الحيـاة حتّـى أنّ روائـح الجثـث المتعفّنـة شـرعت فـي الاقتـراب مـن أنفـي وجعلتنـي أنتفـض كفـرخ انقـضّ عليـه رعـب كاسـر وبـدا أنّ الجـو يتغيّـر ويعـود أدراجـه إلـى عـزّ الشـتاء فقـد لفحنـي هـواء ثلجـي فـي الوقـت الـذي كان مـن المفـروض أن يكـون الطقـس أكثـر دفئـا...

عدتُ أدراجي إلى الصالون وجلستُ على الكنبة مُتفكّرا في الشعارات التـي غـزت القنـوات التلفزيـة وصفحـات التواصـل الاجتماعـي «ابـق فـي البيت لسـلامتك وسـلامتي» «شـد دارك واحم صغـارك» «عد إلى البيـت سـريعا» «لا تغـادر بيتـك» «stay at home» وغيرهـا مـن الشـعارات التـي أصبحـت بمثابـة المفاهيـم التـي جثمـت علـى صـدري وحوّلـت بيتـي إلـى زنزانـة بـاردة وموحشـة وتحوّلـتُ فـي لحظـة إلـى سـجين دون محاكمـة ودون اقتـراف جـرم واضـح، رغـم أنّ الدسـتور فـي فصلـه الرابـع والعشـرين (فصل 24) يضمـن حريّة التنقّل وحريّة

مغادرة البيت وحريّة مغادرة الوطن. إلا أنّ مثل هذه الحقوق التي تبدو في الظاهر مقدّسة تنهار في أوّل مناسبة عندما يصبح المكوث في البيت هو الضامن لحق الحياة المقدّس.

سجين في البيت! تبدو فكرة رائعة. وإذا تمّ تطبيقها على السجناء الحقيقيين ستمثّل ثورة حقيقية! فلنتخيّل مثلا لو تتغيّر أحكام القانون الجزائي ويصبح تنفيذ الأحكام بالسجن يتمّ في مقرّ إقامة المحكوم عليه لمدّة معيّنة وتكون هناك آليّة تقنيّة لتطبيق هذا الحكم كزرع شريحة إلكترونية في جسده لا يمكن نزعها دون اتلافها. ستكون عقوبة قاسية وسيسعى بعدها السجين إلى عدم العود رغم احترامها لكل معايير حقوق الانسان. ورغم ما ستوفّره للدولة من ميزانيّات، ورغم ما ستوفّره للسجناء من عدم الاختلاط مع أقرانهم الخطرين، ورغم ما ستوفّره لهم من رفاه في مقر الإقامة إلا أنّ ذلك لن يتم إلاّ بتوفّر شرط أساسي: أن يكون بيت السجين عبارة على شقة مُعلّقة بين السماء والأرض، لأنّ الشعور الذي انتابني وأنا محشور في بضعة أمتار هو أنّني سجين في قفص الأرانب في حديقة الحيوانات! إلاّ أنّ هذا القفص هو الملاذ الوحيد وربّما الأخير للفرار من عدوى الوباء العولمي الأخرس وغير المرئي.

واصلتُ تبنّي الفكرة ووجدت أنّها قد تضع القانون الجزائي ومدير السجون في مأزق. إذ كيف يمكن الحكم بالسجن وتنفيذ العقوبة على مقترف جرم للمكوث في بيته إذا لم يكن له بيت أو إذا لم يكن له بيت يستجيب للمواصفات؟ خصوصا وأن النصوص

القانونية تضمن الحق في السكن اللائق؟ إنّ فكرة الدفاع عن كرامة شخص محكوم بالسجن وتمتيعه ببيت لائق ليُسجن فيه قد تبعث على الحيرة إلاّ إذا كان المقصود منها حماية السجناء بعضهم من بعض وحماية المجتمع منهم بتوفير فرصة حقيقية لتأهيلهم. ولكن عقوبة من قبيل أن يكون للسجين بيت، يحتوي على كل المرافق الضرورية، يقيم فيه ويسمع في الصباح أبواب بقيّة الشقق تنفتح وتنغلق ويغادرها أصحابها ويعودون إليها في كل وقت حتّى في آخر ردهات الفجر، وهو محكوم عليه بعدم الاقتراب من باب الخروج، ستكون عقوبة قاسية تنطوي على روح سادية مقيتة ورغبة في التنكيل بالسجين وتسليط أكثر الانتهاكات جسامة عليه، عندما يكون مسجونا في فضاء يتمتّع فيه أجواره بكامل الحريّة!

«البيوت قبور والنوافذ محاولةٌ للتراجع»! أذكر أنّي كتبتُ هذه «الإيبيغراما» ونشرتها في كتاب «حكمة العصر» ولكنّ البيوت أصبحت اليوم شبيهة بالقبور حتّى في وجود النوافذ لأنّها قد تأتينا بهذا الوباء غير المرئي. ولكن شعار العودة إلى البيت، لا يحثّ في حقيقة الأمر على الذهاب إلى البيت وإنّما يحثّ على الانعزال وعدم التواصل مع الآخر خشية من ذلك الآخر وخشية من الذات على الآخر.

لقد صار البيت على عكس الرأي السائد، والقائل بأنّه مساحة الملاذ الوحيدة ضد العدوى، مكان العزل للمصابين بالفيروس الذي حوّلهم إلى آلات عدوى وحوّل الآخر إلى حامل محتمل

للفيروس لذا وجب الاحتراس منه تماما مثل الاحتراس من الإرهابي الحامل في عقله دينا عنيفا وفي خاصرته حزاما ناسفا، في وضع وبائي جرّد الحداثة من قيمها وكشف عن هشاشتها.

في نهاية قصيدة تطير الخطاطيف بي كتبتُ سنة 1997:

خطاطيف بيتي تُحلّقُ في باحة الدار
لا أستطيع الذهابَ إليها
أريدُ الرجوع إلى عزلتي في المسير
لأنسى الذي قد رأيتُ..
وأمضي وفي معطفي جثّتي القلقه
أوزّعُ في الكلمات دمائي ولا أقتفي أثرَ الأنبياءْ
وحين تحطّ الخطاطيفُ عندَ يَدَيَّ
وتبسطُ لي ريشها، لن أنادي عليها
لِتأخُذَني خلفَ تلكَ الغيوم
فعمّا قليل سيأتي إلى بيتي الأصدقاءْ[1]

لقد صار الانعزال في البيت بمثابة الفوبيا ضد الوباء لذلك لن يكون للأصدقاء مكان في البيت، بل إنّهم لن يُلبّوا الدعوة خوفا من انتقال محتمل للعدوى ليس من الأشخاص فحسب وإنّما أيضا من الأشياء... لقد صار الاقتراب من أي جسم انساني أو غير انساني غير مضمون العواقب وأصبح الآخر بمعناه العاقل وغير

1 «تطير الخطاطيف بي»، عادل معيزي، وطّان القصيدة، دار الأطلسية للنشر، 1998، ص 69

العاقل يحتمل الخطر واستعاد هذا الآخر جحيمه الذي كان يحمله معه!

لعل القول بأنّ العزلة - مطلب الأدباء والفلاسفة - هي ما يتحقق اليوم، هو قول غير صائب لأنّ عزلة هؤلاء هي عزلة فرديّة في خضم حركية العالم وتشابكه وارتباطاته وعلائقيته وحرارة حياته، ولكن عندما تصبح العزلة جماعيّة أو عالميّة فإنّها تكفّ عن أن تكون كذلك، وإنّما تصبح ضربا من تمرين ما بعد ميتافيزيقي على توحّد العالم وخرسه بوصفه مقبرة كبرى لكل الكائنات بعد نهاية الحياة عليه، وليس قلقاً وجوديّا من الحياة المضطربة فيه!!... لا أدري كيف قفزت إلى ذهني نهاية الحياة على الأرض وظلت منبعثة منها موسيقى أغنية راؤول جورنو فيكمش خديجة يا المحفل.

إنّ العزلة شيء ممتع ولكن من الضروري أن تجد شخصا يقول لك: «إنّك في عزلتك تعيش متعة لا تُضاهى بعيدا عن هذه الضوضاء التي نحياها»!

– 3 –

الأربعاء 25 مارس 2020

حين فتحتُ عينيّ هذا الصباح ووجدتُ الظلام مخيّما في أرجائه أحسست أنّني في نفق وأن المنزل أصبح عبارة عن كهف وتحسستُ ذقني فوجدتُ لحيتي قد طالت كثيرا ولمستُ كتفي فوجدتُ شعري صار مسدلا وحككتُ رأسي فشعرت بأظافري الطويلة ازدادت طولا. ونظرتُ فوجدت امرأتي وابنيها يرتدون جلود الحيوانات البالية والبائسة بؤسا دون أسرار. لقد احتمينا منذ ما يقرب الشهر بهذا الكهف المظلم والبشع خوفا من حيوانات مفترسة ظهرت أخيرا ولم أستطع أن أصدّها وأحمي رؤوس البشر التي أملكها إلا بالفرار إلى هذا الكهف المظلم والبقاء فيه حتّى تمرّ قطعان الحيوانات المفترسة التي تأتي على كل ما يعترضها فتحوّله إلى عهن منفوش... ليس ثمة شيء في هذا الكهف سوى الظلام ورائحة عطنة ربما هي رائحة برازنا وبولنا...

دفعتني أغنية الحب ليعة حارقة وقوية للمطربة علية المنبعثة من جهاز التلفزة الذي يشتغل بلا توقف إلى الاستئذان من ماضي الإنسانية البعيد لأعود إلى حاضري متسائلا عن تاريخ اكتشاف

المرحاض وتاريخ اكتشاف طريقة الجلوس للتبرّز فيه! إن البقاء الالزامي في البيت جعلني أتفكّر في طريقة تدبير الحياة به منذ بداية الخليقة! حينما كنت طفلا كنت ألاحظ الفرق بيني وبين أختي في طريقة التبوّل في المرحاض. ففي الحين الذي كنتُ أفعل ذلك واقفا وأصوّب خرطومي إلى أن ينفذ بولي بسلاسة إلى قعر الوعاء وأنا أرى مستمتعا ارتطامه وهو يشكّل رغوة سائلة، كانت هي تتقرفصُ جالسة في عناء، معتقدا أنّها وُلدت مَخصيّةً. وبعد سنوات عديدة أدركتُ أن الفكر الذكوري إمّا أنّه يحتقر النساء أو أنّه لم يفكّر جدّيا فيهنّ قطّ...

كان جسدي منهكا وروحي في حالة من التوتّر الزائد. وعندما استيقظتُ سيطرت عليّ بعد برهة ذكرى حلم رأيته قبل شهرين تقريبا.

كنتُ أقلّبُ ملفّا بلا أوراق في مكتب بارد وضعوني فيه بلا مهمّة واضحة رغم أنّني كنت رئيس إدارة المعلومات والوثائق بديوان وزارة المالية قبل التحاقي بهيئة الحقيقة والكرامة. إذ تمّ التنكيل بي منذ أن عدتُ إلى الوزارة بعد أربع سنوات وسبعة أشهر ويومين. فكان الوزير الذي سبق وأن طُرد من مكتبه بُعيد 14 جانفي سنة 2011 عندما سقط النظام القديم وعاد إلى الوزارة بنفس خطّته بطريقة سرياليّة، يرسلني إلى الكاتب العام الأصلع في هيئة ملاكم والذي لا يحمل أيّ موسيقى في صوته وهو بدوره يُرسلني إلى مديرة الشؤون الإداريّة صاحبة العينين الميّالة إلى الكيد والتي تعيد ارسالي بدورها إلى الكاتب العام

الـذي لا يسـتقبلني إلا بعـد أنْ أتّصـل بدسـتة مـن مستشـاري رئيـس الحكومـة الـذي كان يسـتعدّ لمغـادرة الحكـم ولقـب الفشـل الـذي التصق بمؤخّرتـه جعلـه يمشـي بتثاقـل، ويرسـلني بـدوره إلـى الإدارة العامـة للمحاسـبة العموميـة والاسـتخلاص التـي تتبادلنـي لعشـرات المـرّات مـع الأمانـة العامـة للمصاريـف للبـلاد التونسـية لأجـد نفسـي فـي هـذا المكتـب الأصفـر!

وبسـبب الحفـاظ علـى حيـادي واسـتقلاليّتي، فقـد تـم الانتقـام منّـي مـن طـرف المنظومـة الإداريـة منـذُ أن أنهيـتُ مهمّتـي بهيئـة الحقيقـة والكرامـة فـي 31 ديسـمبر 2018. خصوصـا وقـد تحالـف ضـدّي كلٌّ مـن المنظومـة القديمـة والجـزء الأكبـر مـن المنظومـة الجديـدة الحاكمـة ممثّلـة فـي الحركـة المتحالفـة مـع الحركـة الاسـلامية لأنّنـي لـم أسـتجب لإمـلاءات مفهـوم العدالـة الانتقاليـة تلـك التـي كانـوا يريـدون فرضهـا علـى عمـل الهيئـة، بـل إنّنـي كنـتُ أدعـو باسـتمرار إلـى محاسـبة المسـؤولين عـن الانتهـاكات التـي جـدّت فـي الفتـرة بيـن 2011 و2013 كمـا ينـصّ علـى ذلـك القانون وهو ما أكسـبني عداوات جـزء مـن أعضـاء الهيئـة الذيـن كانـوا مواليـن بشـكل مباشـر وغيـر مباشـر للحـزب الأغلبـي آنـذاك ممّـا عقّـد مهمّتنـا. مهمّـةً كان علـيّ مـن خـلال انتخابـي عضـوا، أن أسـاهم - بحيـاد ونزاهـة واسـتقلالية - عـن طريـق مجموعـة مـن الآليـات والوسـائل فـي معالجـة إرث ماضـي الانتهـاكات الجسـيمة لحقـوق الانسـان وانتهـاكات الفسـاد المالـي والاعتـداء علـى المـال العـام. انتهـاكات اقترفتهـا أجهـزة الدولـة أو الأفـراد أو المجموعـات المنظمـة وغيـر المنظمـة التـي تصرّفـت باسـم

الدولـة أو تحـت حمايتهـا خـلال مـا يقـرب عـن سـتة عقـود، وذلـك بكشـف حقيقتهـا ومسـاءلة المسـؤولين عنهـا ومحاسـبتهم وتقديمهـم إلـى القضـاء المتخصّـص وإعـداد برنامـج لجبـر ضـرر الضحايـا ورد الاعتبـار إليهـم عبـر الاعتـراف بمـا كابـدوه والاعتـذار عمّـا لحقهـم، وإصـدار تقريـر ختامـي شـامل تـمّ تسـليمه للرؤسـاء الثلاثـة (رئيـس الجمهوريـة ورئيـس البرلمـان ورئيـس الحكومـة) وتـمّ التعتيـم عليـه رغـم نشـره فـي موقـع الهيئـة. وقـد احتـوى ذلـك التقريـر الـذي يقـع فـي مـا يناهـز الثلاثـة آلاف صفحـة علـى الحقائـق التـي تـم التوصـل إليهـا والمقترحـات المتعلقـة بإصـلاح المؤسسـات التـي سـاهمت فـي الاسـتبداد والفسـاد والتوصيـات المتعلقـة بحفـظ الذاكـرة وتحقيـق المصالحـة الوطنيـة.

فـي تلـك الفتـرة عندمـا بَـدَأَت العدالـةُ الانتقاليـةُ تقول: «كلَّ شـيء يمكن دفـع ثمنـه» انتهـى بهـا الأمـرُ إلـى غـضّ بصرهـا وإلـى تـرك الأمـور العسـيرة تمضـي علـى هواهـا وهـو مـا أدّى إلـى تدميـر نفسـها بنفسـها. كان يمكـن أن يـؤدّي اكتشـاف عمليـة اغتيـال الناشـط السياسـي صالـح بـن يوسـف بالإجابـة عمّـن حـرّض ومـن خطّـط ومـن مـوّل ومـن نفّـذ ومـن ضمـن التغطيـة السياسـية، إلـى اكتشـاف عمليـة اغتيـال الزعيـم شـكري بلعيـد التـي حدثـت بعـد مـا يربـو عـن السـتين سـنة بنفس الأسـاليب ونفس المواضعـات ونفس الوعـي السياسـي المتدنّـي للمتصارعيـن علـى السـلطة! لقـد كانـت المفارقـة التـي لـم يكـن مـن السـهل علـى المجتمـع والنخـب اسـتيعابها أن العدالـة الانتقاليـة ليسـت آليـة لمعالجـة الأعمـال التعسـفيّة والانتهـاكات التـي يقـوم بهـا الأفـراد

والمجموعات بوصفها انتهاكات للقانون وبوصفها امتناعا عن طاعة السلطة العليا وإنّما هي آلية لمعالجة انتهاكات تلك السلطة العليا التي لم تقبل عدم طاعة أولئك الأفراد والمجموعات!

لقد بحث البعض عن أصل العدالة الانتقالية في حقل التسويات التي تَقْتَرِحُهَا وتَعْمَدُ إلى فَرْضها عند الاقتضاء وبحثَ عنها البعضُ الآخرُ في الحقِّ المشروع في الحصول على تعويض مناسب، في حين بحث عنها آخرون في حقل الحقد الذي تفتّحت زهرته بين المتعطشين للانتقام. وفي الخضمّ يُجابَه كلّ اتّزان بمقاومة رهيبة! فأنْ يظلّ العادلُ عادلا حتّى تجاه مَنْ أضرّ به ويتسلّح بالبرود والاتّزان والرفعة واللامبالاة، وأن يحتفظ تجاه سيل المغالطات والإهانات والشتائم والتشهير الشخصي، بالموضوعية المترفّعة والعميقة ويحافظ تجاه كل ذلك بأعظم مقدرة على ضبط النفس وبنظرة صائبة تُقرّرُ وتحكمُ، فمن المؤكّد أنّ ذلك يشبه المسيح المتجسّد... لست من ذلك النوع إلا في مستوى الدور الوظيفي أمّا كتابتي فقد جرت العادة على أنّها حيوية وقويّة وتلقائيّة وعدائيّة تكرّس جزء من قواها ضد الطغيان وضد الاستبداد وضد كل نوع من أنواع التماهي.

لذلك أجد نفسي اليوم في مكتب بارد فاغرا فاه، عندما دخلته أوّل مرّة بدت الأشياء غائمة الصورة فيه بسبب قلة الإضاءة. ورأيتُ آلاف الملفّات المهجورة في الخزائن الحائطيّة وقد تراقصت فوقها حشرات طفيليّة، ولم تتم دراستها وتقرير مصيرها النهائي بسبب روتين إداري كان أبطأ من دبيب الحياة وتخلّف عن الرقمة التي

كنت أطالب بها وأجهد نفسي في خوض المعارك من أجلها من نهاية القرن الماضي. وفي درج المكتب المترهّل خشن الملمس وجدت دفاتر بالية مازال فيها بقيّة صفحات بيضاء وكأنّ الموظّف السابق الذي كان يشغلُ هذا المكتب غادره فجأة بسبب موجة ذعر داهمة! كانت نوافذ المكتب تُطلّ على «نهج روما» الخلفي الذي يعجّ بمحلات بيع مستلزمات الأكل والملابس والأواني والكتب وقطع الغيار وكل ما يحتاجه الناس وكان في مواجهة نافذة المكتب مباشرة محل لبيع الشرائط المسجلة يبث باستمرار ترتيلا للقرآن وأحيانا أغاني فيروز وفي غالب الأحيان كوكتال أغاني الهادي الجويني.

في الأيّام الأولى من عودتي إلى الروتين الإداري، أحسستُ أنّني عدتُ من هجرة غامضة بعد سنوات طويلة، إذ أنّ عملي كرئيس لجنة حفظ الذاكرة الوطنيّة في الهيئة جعلني أغيب تماما عن العالم وأغرق لأكثر من أربعة عشر ساعة في اليوم في ملفات الضحايا وشهاداتهم الموجعة عمّا كابدوه من عذابات... كان الموظّفون ينظرون إليّ بعيون يملؤها الشكّ بسبب الحملة الصحفيّة الشنيعة التي شنّتها خلال سنوات وجودي في الهيئة غالبية وسائل الاعلام ضد مسار العدالة الانتقالية، بإيعاز من المنظومة القديمة وأعوانها من الفاسدين من الذين مازلتُ أحفظ أسماءَهم ومازلتُ أراهم في مواقع القرار ويتصدّرون المشهد الاعلامي. وكنتُ من حين لآخر أسمع وشوشة الزميلات أو الزملاء عندما يقولون في أحاديث جانبية كلما مرّوا في الرواق

الذي يوجد به مكتبي «هذا الذي كان يعمل مع سهام بن سدرين» وهم يقصدون رئيسة الهيئة التي واجهتْ أكثر من كلّ زملائها وزميلاتها من الأعضاء حملات شرسة من أجل إثنائنا عن مواصلة عملنا وإصدار التقرير الختامي، دون جدوى.

كنت خلال أيّامي الأولى أستمتع من جديد بالمدينة الضاجّة وأتجوّل في الشوارع المحاذية لمقر عملي الجديد في شارع الحبيب ثامر بغية التآلف مع المكان من جديد. وفي الحقيقة كنت أفعل ذلك بغية التآلف مع روحي التي ظلت هناك في شوارع الحبيب بورقيبة وباريس وأنهج مرسيليا وغاريبالدي ولينين والقاهرة عندما كان مكتبي في نهج مرسيليا قبل أن أغادره إلى الأبد. كنت أسير أثناء استراحة الغداء في تلك الأنهج والأزقة والشوارع مُفكّرا في أنّه لا شيء في العالم أفضل من التجوّل هكذا كيفما اتفق في أرصفة العاصمة. كانت الموظّفات تقفن أمام مطاعم الأكلات السريعة المكتظّة ولم يكن أحد يستطيع أن يعلم إن كنّ يفعلن ذلك من أجل الأكل أم أنهنّ يمنحن الفرص للرجال كي يتفرّسوا فيهنّ بزينتهنّ الرومنسيّة وبملابسهنّ التي تكشف عن تكوّراتهنّ المغرية. كانت الشمس تنسكبُ أمامي على الاسفلت وعلى الجدران العالية وتضيء سطوح المنازل وتنعكس على واجهات المحلات البلوريّة. وكانت هذه المحلاّت ذات ديكورات متعدّدة ومختلفة ومرايا متعدّدة ممّا يجعل الشمس تؤمّن لها حصّتها اليوميّة من الضوء.

عندما أزحت ستار النافذة الحاجب لضوء النهار في مكتب يبدو فيه الهواء دائما أقل كثافة والصمت أكثر رسوخا في الطابق الثاني، لأطلّ على الشارع الواقع خلف «نهج روما» وأستطلع سبب الجلبة غير الاعتياديّة التي أحدثها الباعة، فإذا بي أرى الهوّة التي فتحها وادي مجردة في معنى الفيضان. كانت الأمواج المتتابعة تُغرق كلّ ما يعترضها من البضائع والمعزوفات الشعبية والفطائر السابحة على أغلفة الكتب القديمة وعربات الفواكه الجافة وتغرق حتّى أصوات الباعة المتعالية، إذ لم يمنع ارتفاعها الماء من أن يغمرها. وكان الوادي يشقّ طريقه بين السيارات التي تطلق صرخات معدنيّة إلى الجهة الأخرى من العالم. التهب دماغي وأنا أرى الأنهج المجاورة تغمرها المياه وأشاهد الأسرّة والحشايا وأواني الطعام والملاعق تتراقص سابحة وهي تغادر البيوت باتجاه نهج الملاحة. وحين نظرت إلى الأفق وجدتُ الوادي انقلب إلى نهر وأغرق مدنا بأكملها ولم يبق منها إلاّ ذرى الجبال الخضراء. وبسبب عنف المياه فقد توقّفت المآذن عن إرسال أصواتها الحزينة وأعلن «جامع غناء العصافير» عن استعداده لتعويض الآذان بعد مرور الطوفان وتقدير مساحة الدمار وحجم الخسائر، بالتأذين دون انقطاع لمدة أربعين يوما وخمس ساعات...

ربما تذكّرتُ ذلك الحلم لأنّني نمت على مشاهدة الدكتورة «نصاف بن علية» المختصّة في مقاومة الفيروسات في التلفزة بقامتها القصيرة وصوتها الخارج من عمق بئر جافّة، وهي

تصـرخُ فينـا وتترجّانـا أن نطبّـق قواعـد الحجـر الصحـي بحذافيـره وألاّ نغـادر البيـت إلا عنـد الضـرورة القصـوى. وبسـبب الاسـتهتار بكلامهـا وعـدم التـزام عديـد المواطنـات والمواطنيـن فـي كثيـر مـن المناطـق بتعليماتهـا، بـدت لـي كأنّهـا النبيّـة نوحـة وهـي تُحذّرنـا مـرّة أخـرى مـن الطوفـان الثانـي.

بعد فتـرة مـن خلـق العالـم وظهـور الحيـاة تكتشـف الآلهـة أن الانسـان الـذي جعلتـه ممثلهـا علـى الأرض لـم يحقّـق الغايـة التـي مـن أجلهـا خُلـق. وأنّـه قـد عـاث فسـادا وسـفك الدمـاء. فتُقـرّر افنـاء الحيـاة علـى الأرض وغسـلها بطوفـان شـامل، تبـدأ بعـده تاريخـا جديـدا. ولكـن الانسـان خـلال الفتـرة القصيـرة التـي قضّاهـا تحـت السـماء، قـد حقّـق بعـض غاياتـه، وتـرك منجـزات حضاريـة وثقافيّـة لا يسـتهان بهـا. ولـذا لابـدّ مـن الحفـاظ علـى ذلـك الجـزء الصالـح ونقلـه للعالـم الجديـد ليكـون أسـاس البنـاء الثانـي. ولـن يتسـنى ذلـك إلا بإنقـاذ مجموعـة صغيـرة مـن البشـر، تحمـل معهـا منجـزات العمـل الإنسـاني لتبـدأ منهـا عهـدا آخـر، علـى أرض تطهّـرت مـن فسـاد الأجيـال السـالفة. ويقـود ملحمـة النجـاة هـذه رجـل حكيـم صالـح تختـاره الآلهـة لهـذه المهمّـة الفريـدة، وتـوكل إليـه مهمـة بنـاء سـفينة هائلـة، يحمـل فيهـا أهلـه والمقرّبيـن منـه مـن الصالحيـن ومـن كل زوجيـن مـن الحيوانـات اثنيـن. لـم يقـم النبـيّ بصيـد الحيوانـات والأطيـار حيّـة ليبحـر بهـا ولكـن بمجـرّد أن أتـمّ بنـاء سـفينته توجّهـتْ كلّ أزواج حيوانـات البرّيّـة وأطيارهـا مـن جهـات الكوكـب الأربعـة إلـى السـفينة الضخمـة وبمجـرّد دخولهـا ترقـد متجمّـدة ليسـتمرّ نومهـا فيمـا بعـد كل السـنوات

التـي ستسـتغرقها السـفينة مبحـرة. فيقلـع بهـا عنـد انديـاح الطوفـان، وقـد حمـل فيهـا مـن المـؤن مـا يكفـي. وعنـد جفـاف الميـاه يُطلـق حيواناتـه للجهـات فتمـلأ الأرض مـرّة ثانيـة ويؤسّـس بمـن تبقّـى مـن البشـر مدينـة جديـدة.

«لقـد جسّـد دارن أرونوفسـكي (Darren Aronofsky) علـى مـدى أكثـر مـن سـاعتين وربـع فـي فيلـم نـوح Noah قصّـة الطوفـان برؤيـة ابداعيّـة فـذّة» هكـذا قلـتُ لصديقـي تيـري ونحـن نغـادر مُركّب قاعـات سـينما UGC فـي بروكسـل ذات ليلـة ربيعيـة مـن سـنة 2014 وكنـتُ أكلّمـهُ رافعـا صوتـي مسـتفزّا فتاتيـن جميلتيـن للدخـول معـي فـي نقـاش الفيلـم بـلا جـدوى.

ثـمّ بـدت سـفينة نـوح وهـو يُعدّهـا تتبخّـر أطـراف أسـطورتها تحـت الشـمس حيـن لـم يمسـك «مواطنـوه» بأقدارهـم بيـن أيديهـم ولـم يتبعوا العلامـات التـي أشـارت بهـا الآلهـة إلـى النبـي فصـاروا مـن الخطّائين وبـدا حملـه مـن كل زوجيـن اثنيـن شـبيها جـدّا بتلهفنـا علـى اقتنـاء حاجياتنـا الضروريّـة للاسـتهلاك والعـودة السـريعة إلـى البيـت وعـدم الخـروج منـه أثنـاء الحجـر الصحـي الـذي قـد يسـتمرّ لأكثـر مـن أربعيـن يومـا. ومـا زاد فـي تأكيـد الشـبه بيـن القصّتيـن قـرار وزارة التجـارة التـي أسـدت تعليمـات عامـة إلـى جميـع تجـار التفصيـل أن لا يـزوّدوا كل مسـتهلك بأكثـر مـن كيلوغرامين اثنيـن مـن مـادة السـكر أو الطحيـن أو الدقيـق.

وبدا لي كأنّنا نعيش أسطورة الدمار الشامل بواسطة كائن سماويّ لامرئيّ قضى على جميع مظاهر الحياة التقليديّة فتوقّف البشر عن السفر عبر الجو عن طريق الطائرات وعبر البحر عن طريق السفن وعبر البرّ عن طريق القطارات والمراكب السيّارة وتوقّفوا عن إقامة الحفلات والسهرات والجلسات الجماعيّة والتجمّعات الرياضيّة وتوقّفوا عن التعبّد والعمل وتوقّفوا عن النفاق عن طريق القبل والعناق المزيّف واحتمت مجموعة من الناس ببيوتها بعد أن تزوّدت بالمؤن الكافية. وبين الفينة والأخرى كان بعضهم يفتح الثقب الصغير الذي أحدثه في باب البيت ليرى إن كان هذا الكائن السماوي غير المرئي مازال يجوب المدن أم عاد من حيث أتى. فإذا اقتحمت بيوتهم رائحة الجثث الملقاة في الطرق وعلى الأرصفة وفي مهابط الوديان والأنهار وعلى المراسي فإنّهم يدركون أنّ ذلك الكائن الطوفاني مازال يحصد الأرواح لذلك يحتمون ببيوتهم من جديد، إلى أن فتحوا ذات يوم ذلك الثقب ليستطلعوا الأمر فلفح أنوفهم هواء ربيعي نقي أدركوا معه أنّ الطوفان قد انحسر ولكنّهم فتحوا أعينهم على أرض موحشة وأدركوا أنهم الكائنات الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة.

لا يحدث الطوفان في الأرض فحسب وإنّما يؤكّد الأطبّاء أنه يحدث أيضا داخل جسم المصاب بالفيروس نفسه من بينها أنّ ميكانيزم الالتهاب الحاد المرافق لدخول الفيروس للأعضاء يُغرق الأنسجة في طوفان من افرازات السيتوكين (les cytokines) وهذا الطوفان يؤدّي بالتالي الى انسداد في الشرايين وتجلّطات

فـي الأوعيـة التاجيّـة والدماغيّـة وفـي كامـل الجسـم ويتسـبّب انسـداد الشـرايين التاجيـة فـي تجلّـط عضلـة القلب ويمكـن أن يمـوت المريض بالسـكتة القلبيـة!

يُسـمّى الحجـر الصحّـي فـي الفرنسـيّة الحجـر الأربعينـي إشـارة إلـى البقـاء فـي العـزل أربعيـن يومـا. ألا يشـبه ذلـك الأربعيـن سـنة التـي وردت فـي الكتـب القديمـة وهـي السـنوات التـي قضّاهـا نـوح وأصحابـه فـي سـفينته مبحـرا قبـل أن تظهـر اليابسـة مـن جديـد؟؟؟ انتظـر نـوح أمـرا إلهيّـا للخـروج مـن السـفينة ولكـن كيـف سـيكون خروجنـا مـن جديـد هـل بأمـر علمـيّ أم بتقديـر خـاصّ مـن الحكومـات التـي عـادة مـا ترعـى مصالـح الأقويـاء؟

لعـل طغيـان النزعـات التدميريّـة والاحسـاس الجـارف بالإحبـاط مـن حضـارة تمضـي دائمـا فـي اتجـاه معاكـس لسـعادة البشـر هـو الـذي يجعلهـا تُضيّـق الخنـاق علـى نفسـها وعلـى صانعيهـا وتسـعى باسـتمرار لوضـع الانسـان علـى حافـة الهاويـة...

– 4 –

الخميس 26 مارس 2020

صبـاح الخيـر أيّهـا المُحَاصَـرُون، صبـاح الخيـر أيّهـا المحجـور عليهـم، صبـاح الخيـر لكيلوغرامـات المقرونـة المُخزّنـة، صبـاح الخيـر للدقيـق المفقـود، صبـاح الخيـر للسـكّر المُهـرّب، صبـاح الخير للمحتكرين ولأيديهم المرصّعة بالرصاص والمخضّبة بآلام الجوعى والمحتضرين... الفساد المتفاقم وهو يبعث بنتانته إلى الآفاق، الجهل والأمية والغباء المستفحل، التعصّب القاني المتوضّأ بالورع والخيانات، الكذب المتدلّي كأوراق الأشجار في غابة الزيف الكثيفة، الجشع الهستيري والأنانيّة الطاعنة في أنانيّتها والانحطاط البارد والملطّخ بالاحتكار والمضاربة واستغلال القُصّر والعجزة، النذالة الملطّخة بالجنون وبالبغاء المتواطئ... كلّها تمظهرات الدمّل المُتقيّح في الشخصيّة التونسية!

صباح الخير لصمودنا البطوليّ الذي يرتفع إلى مستوى المعجزة وانعطاف المزيد من التونسيّات والتونسيين إلى الحجر الصحّي العام، بحيث أصبح كل تحليل جديد للوباء تظهر نتيجته السلبيّة، يجذب المزيد من إرادة الصمود، وها هي منظّمة الصحّة العالميّة

تعلن للعالم أنّ تونس هي الأقرب من بين الدول القادرة على التحكّم في الوباء...

قد يصادف أن تتعرض في حياتك لصعوبات قد تبدو في اللحظة ذاتها مناسبة غير سعيدة بشكل خاصّ، ولكن عندما يمرّ الزمن وتصبح تلك اللّحظات من متعلّقات الماضي كسائر الذكريات وقد نُقّيت من الأحاسيس الماديّة المباشرة وما صاحبها من آلام، وقد نُقّيت من الروائح ومن حرارة المشاعر المتناقضة ومن الرؤى المؤلمة، تصبح اللّحظات العصيبة مجرّد كلمات غير مخيفة والظروف تأخذ نوعا من الغموض الذي يزيد الصورة جمالا. إنّ الحقيقة الماضية هي دوما الأقلّ سوء من ذاك الذي حدث بالفعل، والذاكرة هي مزيّف خارق للأحداث. وأنا أعيش الحصار والانتظار، انتظار أن تظهر عليّ علامات الوباء، أقضّي الليل في كوابيس حتّى أنّي أفقتُ ذات ليلة على كابوس أنّ آخر صيحات العلم أصبحت قديمة ووجدتُها تُباع بأبخس الأثمان في ساحة الخردة بسوق «باب سيدي عبد السلام» بتونس العاصمة وعندما سألتُ بائعا عجوزا ذو وجه متطاول تحفره الأخاديد ويرتدي بلوزة متسخة وقد غطّى رأسه بشاشية حمراء بالية: كيف لآخر نظرية علميّة تُباع هنا؟ فردّ عليّ بلا مُبالاة ظاهرة بصوت أجشّ يشبه بقعة زيت على ربطة عنق: «حتّى نظريّتكَ التي تسعى لبيعها لمؤسّسة «كارفور» ستصبح قديمة قبل وصولك إلى الفضاء التجاري الذي لا يبعد أكثر من عشرة كيلومترات، فليس هناك سوى حقائق مؤقّتة، فقط الجهل يمكن أن تجده مُعلّبا في

تلك الفضاءات الرسميّة وبأسعار باهضة. وعندما تقتنيه يقدّمون لك ورقة ضمان جودة الصنع التي تمتد على عشر سنوات ويمكنك أن تردّ لهم بضاعتهم خلال هذه المدّة إذا اكتشفتَ عيبا في الصنع» كدتُ أقول له: «وكيف عرفتَ أنّني أبحثُ عن بيع نظريّتي العلميّة الجديدة؟» لولا أنّني اكتشفتُ أنْ لا نظريّة لديّ سوى بعض الاحتمالات الأسطوريّة عن وباء كورونا المستجد. فبعد أن قرأتُ كتاب ديفيد كوامن الصادر سنة 2012 «الفيض أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر» أدركتُ أنّ سبب هذه الأوبئة هي عدوى تنقلها الحيوانات التي كانت في تماس مع تلك الفئران الطائرة التي كانت تُشعرني بالتقزّز منذ طفولتي وهي ما نسمّيها بالخفافيش، وأنّ إحدى أهم المشاكل في علم الأوبئة هي التأكّد ممّا إذا كانت هذه النهاية للوباء تحدث فقط عندما لا يتبقّى أفراد من الأكثر قابليّة للمرض، أو ما إذا كان تفاعل العوامل المختلفة للعدوى والشفاء والوفاة قد ينتج عنه نهاية الوباء، في حين أنّ هناك الكثير من الأفراد القابلين للمرض لايزالون موجودين بين السكّان غير المصابين.

لكنّ الخطر سيظلّ محدقا بالبشريّة حتّى بعد نهاية موجة كورونا لأنّ الزيادات الصغيرة في القدرة على العدوى قد تؤدّي إلى أوبئة أكبر وهو ما سيجعل حياتنا القادمة معرّضة باستمرار إلى الخطر في غياب الشعر! الآن أدركتُ بالضبط ما الذي كان يقصده ذلك البائع الذي التقيته في سوق الخردة في النوم عندما كان يتحدّث عن أحدث نظريّاتي، إنّه الشعر! نعم الشعر... فقد تفاقمت

الحروب والأوبئة والمجاعات والتدمير الممنهج للطبيعة والمحيط والبيئة عندما تراجع انتاج الشعر واستهلاكه!! وقد حرّرتُ ذات 21 مارس من بداية القرن بيان اليوم العالمي للشعر ونشرته وأعدت نشره مرات عديدة دون أن تطلب مني منظمة اليونسكو ذلك. ومن بعض ما جاء فيه «(...) لقد آن للشعر أن يستعيد رسالته وآن للشاعر أن يستعيد دوره! لو يتأمل المتأمّلون فإنّهم سيجدون أن الشعر نبّه لما نحن فيه اليوم منذ زمن بعيد ومنذ زمن قريب أيضا بفضل حدوسات الشاعر وإلماعاته وإشراقات بوصلته الحرّة وبفضل ما يتمّع به هذا الكائن من طاقات استثنائية في الاستشراف والاستباق، لما تنطوي عليه روحه من رهافة وشفافيّة مذهلة، عائدتين إلى خصوصيته هو بالذات أوّلا، وإلى خصوصيّة المنطقة الجوهريّة التي يعمل فيها.. إنّه هدهد البشريّة ودليل الحاضر على المستقبل. ولا غرابة إذن في أن نجد عند منعطف الشجون، طاقات خارقة عند الشاعر مثلما نجدها عند الكائنات الأخرى كحيوانات الكائن ونباتاته وجماده!

ما يحدث من حروب ومن اعتداءات على الحقوق الطبيعية الآن وفي أماكن كثيرة من العالم... وما يحدث من اغتصاب لجوهر «إنسان الكائن» و للطفولة في أبديّة البراءة وللفراشات في الهواء وللأسماك في البحر وللأشجار في الغابة... وما ينتشر من مجاعات وأوبئة غريبة وتخمة أيضا... وما نرمق من فقر مدقع و من غنى فاحش... وما يستمرّ من كوابيس رماديّة ومن إحساس بالرعب ومن تفكير في الهجرة إلى المريخ أو إلى الموت...

ومـا نستشـعر مـن إحسـاس باليـأس الجماعـي والإحبـاط الكونـي ممّـا يجـري... كل ذلـك وغيـره ممّـا سـيحدث لا يخلـي مسـؤولية الشـعر والشـاعر فـي المسـاهمة فـي حدوثـه علـى الأقـل(...)».

لقد تأكّد لـي مـا كنـت أؤمـن بـه منـذ البدايـة وأنـا أطالـع اليـوم كتـاب «حديـث الطريقـة» «لرينيـه ديـكارت» بترجمـة وشـرح وتعليـق أسـتاذ الفلسـفة «عمـر الشـارني» الصـادر عـن مكتبـة المعرفـة الجذلى بتونـس وتوزيـع مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة حيـن كتـب «يمكـن أن نعجـب لوجـود أفـكار أساسـية لـدى الشـعراء أكثـر ممّـا يوجـد منهـا لـدى الفلاسـفة والسـبب فـي ذلـك هـو أنّ الشـعراء يكتبـون تحـت تأثيـر الحمـاس وقـوّة الخيـال، إذ أنّ بـذورا للعلـم توجـد لـدى البشـر، كمـا فـي حجـر الصـوّان، فالفيلسـوف يبرزهـا بالعقـل، أمّـا الشـاعر فيكشـف عنهـا بالخيـال، ولذلـك فهـي تكـون عنـده أكثـر بريقـا...»

– 5 –

الجمعة 27 مارس 2020

كانت عيناي مازالتا مغمضتين عندما استيقظتُ على موسيقى أغنية صافيّة شاميّة يا مثيل عرف الياس، يا جارحة قلبي، وكنتُ قد بلغتُ حالة من الصفاء التام التي تجتاحني عندما لا أستيقظ بشكل كامل وتبقى جهة منّي مشدودة إلى عالم آخر. عالم يكون فيه عقلي مخدّرا وروحي تتحرّك عاليا بطريقة مكوكيّة وبلا أدنى مشقّةٍ وكأنّها مشدودة بمغناطيس. في تلك اللّحظات-إن جاز لي أن أطلق عليها هذا الوصف، إذ أنّ الزمن يكون مُكثّفا وشبيها بالأبديّة-بدا لي أنّه من الضروري أن أتساءل مَن هو النوع النقيض لنا؟: لم تعد فكرة اللاهوتي والناسوتي ولا الغنيّ والفقير في كارثة التناقض الطبقي التي عرفها التاريخ منذ آلاف السنين هي التي ستجيب عن سؤالنا! عندما نكون شاهدنا الكارثة عن كثب وعندما نكون قد عشناها ليس فقط كتجربة شخصيّة وإنّما أيضا - وهذا الأهم - كتجربة جماعيّة بل كتجربة انسانيّة، وعندما تكون البشريّة قد شارفت على الهلاك بسببها، يمكن في تلك اللحظة بالذات أن نُحدّد النقيض...

لقد كنتُ أخوض الحرب باستمرار وحيدا وبحدوسات أصيلة أكثر منها بمعارف عميقة، ضدّ المفاهيم الكبرى التي انبثقت منها كلّ المعارف وكلّ الفلسفات وكلّ الأديان وكلّ اليقينيّات، تلك المفاهيم التي انبنت منذ التأسيس للفكر الإنساني على مسلّمات التناقض والصراع! ألم يحن الوقت بعد ليبدأ التاريخ؟ هل سنظلّ إلى وقت أبعد ونحن نحيا في ظلمات ما قبل التاريخ أين يتمّ انتهاك كل الموجودات باسم الذكاء الإنساني وباسم الله الذي سخّر كل شيء لهذا الكائن الشرّير الذي يسمّى الانسان؟

لعلّ «المعرفة الحقيقية التي يمكن أن تقدّم تصورات جديدة هي المعرفة التي تبنى على قطيعة تامّة مع كل المنجز الحضاري، وكم أتمنّى أن يفنى الكون إلاّ من عقل وحيد ينطلق من الفراغ ويعيد سيرة الإنسان الأولى، فإنّه بالتأكيد سيصل إلى نتائج لم نتوصّل إليها نحن، وربّما ذهب إلى أقاص أخرى في الذات الممّتدة كامتداد الكون، لم نبلغها نحن ولا نستطيع أن نبلغها لأنّنا مضينا في اتجاه آخر مختلف... وهذا استثناء ما لمبدأ الحتميّة الذي أصبح من إرث الماضي خصوصا عندما يتعلق الأمر بإشراقات الفكر وحالات الذهن في توافقه مع سلسلة لا متناهية من التداعيات الغريبة وانسيابيته المدهشة...

ومن هنا كان علينا أن نطرح السؤال المركزي وهو أن المعرفة الإنسانية ظلت إلى اليوم تراكما للمنجز الحضاري والمعرفي الإغريقي ويعتبر فلاسفة الغرب أن فكرهم ومعرفتهم هي محصلة هذا الإرث... وقد أدّعي - وهذا رأي ذاتي - أن الفكر البشري السائد

برمّته هو محصّلة الفكر الإغريقي القديم وقد أجازف بالقول إنّ المعرفة لم تغادر عتبات هذا الإرث، وهنا يكمن الإشكال! ...إنّ الفكر الذي تلى، ناقش الفكر القديم ليبني أنساقا معرفيّة جديدة ولكنه لم يناقش المسلّمات التي جاء بها الفكر الإغريقي القديم واعتبرها من الثوابت الماقبليّة ولم يشكّ في أسس هذا الفكر الذي كان بدوره محصلة انتقاءات فكر حضارات الشرق القديمة... وعلى هذا الأساس فإنّ هذا الإرث مشكوك في أمره ما لم يضع حدّا لانتشار الحروب والأوبئة والصراعات وبشكل عام لم يضع حدّا للشرّ الكامن في الإنسان، هذه النزعة التي اتخذها الفكر الفلسفي كمسلّمة منذ الإغريق إلى اليوم... ومن هنا يمكن أن نتساءل عن إمكانية أخرى: فلو تشكلت بنية الفكر الإنساني على أساس تراث آخر غير التراث الإغريقي - كالتراث البابلي على سبيل الذكر لا الحصر- لكانت النتائج مختلفة لأنّ هذا الإرث يتيح إمكانيات لطرح أسئلة مختلفة جوهريّا عن إمكانيات الفكر الإغريقي، ففي ملحمة «هو الذي رأى» البابلية نجد أن «جلجامش» كان يُصرّفُ قوّته الجبّارة في العنف الذي يمارسه على رعيّته وعندما التقى «بإنكيدو» تصارعا صراعا انهدّت له أعمدة «أوروك» ولكنّهما في النهاية تعادلا فاتخذه جلجامش صديقا له... ومن هنا اهتدت الحضارة البابلية منذ البداية إلى أن الإنسان ليس عدوّا لأخيه الإنسان... وهي أوّل ملحمة في التاريخ المكتوب تهتدي إلى قيمة الصداقة... ثم إنّ المرأة في هذه الملحمة لم تُتّخذ كرمز للخطيئة مثلما عرفنا ذلك في التراث الإنساني...إذ أنّها أغرت «إنكيدو»

فكانت خطيئته في عالمه الحيواني ولكن في الحقيقة كان لها دور أنْسَنَتِهِ وإخراجه من هذا العالم إلى الحضارة، فبعد أن أغوته ومارس معها الحبّ هجرته الحيوانات التي كانت متصالحة معه ولم يجد طريقا إلا بمرافقتها إلى المدينة..

وعلى هذا الأساس أدرك الإنسان البابليّ بشكل مبكّر أن صراعه الحقيقي مع الفناء وأن تحدّيه الجدّي هو الخلود والأمثلة كثيرة... في حين أن الحضارة الإغريقية تهافتت على الصراع ـ صراع البشر والآلهة ـ والحروب والتقتيل. ولو انطلق جون ستيوارد مل أو غوتة أو ديكارت أو هيجل أو ماركس أو فرويد أو نيتشه أو غيرهم من الفلاسفة الذين ساهموا في تشكيل بنية الفكر البشري الحديث من إرث مغاير للإرث الفلسفي الإغريقي لكان الوضع مختلفا ولكن هذه سنّة المراكمة الحضارية التي لم يحن إلى الآن زمن وضع مسلّماتها موضع التساؤل وبالنتيجة دحضها».

لقد كان هذا جزء من حوار أنجزه معي الصحفي «نصر الدين بن حديد» في منتصف تسعينات القرن الماضي ونشر سنة 2000 في صحيفة العرب باسم صحفي آخر لأنّ «نصر الدين» كان ممنوعا من العمل الصحفي في تلك السنوات...

قد يكون الوقت قد حان مع ما أحدثه فينا فيروس كورونا المستجد لوضع كل ذلك الإرث الإنساني موضع تساؤل ودحضه من أجل بداية معرفيّة جديدة!

- 6 -

السبت 28 مارس 2020

كان عليّ أن أرتّب إيقاع حياتنا الجديدة في البيت على متطلّبات الحماية من العدوى. كان البيت عبارة عن شقّة في الطابق الأوّل في حي الإذاعة: مجرّد غرفتين ومكتب به كتبٌ مكدّسةٌ في شكل مكتبة وحجرة للجلوس بالإضافة إلى ما اصطلح عليه بالمرافق. وأوّل الإجراءات أن يتدرّب طفلاي على المكوث في البيت وتحويله إلى عالم كبير فيه كل ما في العالم الخارجي. ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلا بتحفيز ملكة الخيال لديهما. لذلك لابدّ من التحاور معهما بشكل دائم ومرافقتهما خلال مشاهدة الصور الكرتونيّة والضحك حين يضحكان والتبرّم معهما حين يتبرّمان.

أمّا ثاني الإجراءات فهي أن يغسلا أيديهما بالماء والصابون باستمرار كلّما لمسا شيئا جاء من خارج البيت وقبل الأكل وبعد الأكل وقبل النوم وبعد النوم وإن لزم الأمر أثناء النوم. إذ أقنعتهما أنّنا لا يمكن أن نذهب إلى الحلم دون غسل أيدينا بالماء والصابون فقد نلتقي هناك أشخاصا مصابين بالفيروس أو قد نكون نحن مصابين في الحلم ونتسبّب بالعدوى للآخرين...

يرمقني مجد بنظرات مستغربة وقد علت شفتيه ابتسامة ساخرة لا تكاد تظهر ثمّ يواصل مشاهدة برنامجه التلفزي المفضّل، بينما تنسجم مايا مع فكرتي بل تضيف أنّها إذا التقت بَيَّةَ حبيبة مجد في الحلم، ستستأذنها بالذهاب إلى اليقظة لغسل يديها ثمّ ستعود إليها من جديد!

أمّا ثالث الإجراءات فإنّهما لا يقتربان منّي أو من أمّهما كلما عاد أحدنا من خارج البيت قبل أن نغسل أيدينا ونغيّر ملابسنا...

أمّا كيف نقضّي يومنا فذلك لم يعد أمرا متروكا للصدفة إذ أنّنا ننهمك في المطالعة وإعداد الواجبات المدرسية واللعب ومشاهدة التلفزة وأحيانا الانشغال بالألعاب الالكترونية في الهاتف المحمول وترتيب البيت وإعداد الطعام وفي تلك الأثناء يرغمني مجد على لعب الشطرنج

هذا الصباح عندما كنت أتبارى معه في مقابلة حاسمة باعتبار أنّ خسارتي ستؤدّي إلى إعادة المباراة ولن أتوقّف عن اللعب معه إلا عندما أنتصر عليه، كنتُ أفكّر في حركة الملكة على رقعة الشطرنج في مقابل حركة الملك.

«يمتلك الرّجل منذ أقدم العصور سلطة أعلى من المرأة تقريبا في كل المجتمعات والثقافات. وإذا أضفنا المال أو الجاه إلى الذّكورة صرنا في محلّ مَرْكَزة كلّ السلّطات، مَركزة لا يمكن أن تضاهيها أو تعادلها إلا سلطات قليلة أخرى كسلطة الذّكور من مشائخ الدّين أو الكهنة. وهذه السّلطات التي يكتسبها الذّكور وتمكّنهم

من الهيمنة منذ الصّغر، تصبح واقعا قائما بذاته تصعب خلخلته لأنه قد تحوّل إلى سلطة «**محاطة بالأسرار يمنع اقتحامها أو هتك حجبها لأنها محمية بالغيبيات، وهي في المجتمعات الأبويّة هرميّة وعموديّة لا أفقيّة، تراتبيّة لا تماثليّة، يجري تداولها بين أشخاص متباينين لا بين أفراد متساوين**»، ممّا يعزّز اللاّتكافؤ بين الجنسين ويُخرج النّساء من دائرة المواطنة ويَعْقلهن كالدوابّ بسلاسل لا تنقطع من البُنى المعقّدة. ومن المفارقات أن النّساء ضحايا هذه الهيمنة عوض الانتفاض ضدّها يُعدن إنتاجها وبشكل أقرب إلى القسوة والعنف، فكلّما استبطنت المرأة مزيدا من الدونيّة كلّما كان حرصها أكبر على تثبيت بنى الهيمنة الذكوريّة بما يتاح لها من وسائل»[2].

لقد ظلت سلمى محبوسة في المكتبة الوطنية طوال أسابيع مُمَارِسَةً «حجرا علميّا» قبل أن يدركها الحجر الصحي فتُواصل حبسها في مكتبة البيت منغمسة في بحثها العلمي حول الرؤى الجندرية للأغاني الشعبية وكأنّ العالم وما يحدث فيه من زلزال لا يعني لها أيّ شيء. فقد أصابها شيء من «التوحّد العلمي» الذي جعلها لا تشترك معنا في ما نفعل في البيت إلا بمقدار قليل بما يسمح لها أن تغيّر هواء المكتبة. ولا نراها إلا في الطريق بين المكتبة والمطبخ في ملابس «الكوليج دو النوم» أو أثناء إعداد الغداء أو العشاء لأظلّ أنا بين مايا ومجد الذي يحبسني في لعبة الشطرنج.

2 سلمى الجلاصي، أشعار أغاني النساء في قرية الكنائس جمع وتحليل من منظور جندري، ماجيستير بحث في النوع الاجتماعي والثقافة والمجتمع، كلية الآداب والانسانيات، منوبة 2020.

يحيط الغموض بأصل لعبة الشطرنج وتنتشر نظريّات يسيطر عليها الخيال المتجدّد على الدوام حول التاريخ الباكر لتسلية الفلاسفة والحكماء. غير أنّ التاريخ الذي يسجّل بداية ظهور هذه اللعبة يمتدّ ليشمل حقبة زمنيّة واسعة تتراوح بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن السابع بعده. ويعود هذا التباين إلى استناد معظم النظريّات إلى مجموعة من الروايات الأسطوريّة المفتقرة إلى أدلّة ملموسة بخصوص منشأ اللعبة. وعادة ما يتمّ ارجاع الشطرنج إلى أصول ألعاب شرقيّة قديمة متشابهة تتكوّن من أشكال وقطع ورقعة تتحرّك عليها. ونظرا لذلك فإنّ سؤال متى وأين انبثقت لعبة الشطرنج لأوّل مرّة مازال يفتقر حتّى اليوم إلى جواب واحد ومكتمل. هكذا يرى «غيورغي فلاديميروف».

إلاّ أنّ تاريخ الشطرنج معي مُخْتَلِفٌ بعض الشيء، إذ أنّ ما شدّني منذ طفولتي لهذه اللعبة هو رائحة قطعها سواء الخشبية أو البلاستيكية أو المصنوعة من قرون الفيلة. كان أوّل عهدي بلعبة الشطرنج عندما مررتُ ذات يوم وكنت في العاشرة من عمري بالقرب من كنيسة القديسة فيليسيتي (église sainte Félicité) بنهج فرحات حشّاد بجندوبة، القديسة الرومانيّة الأرملة التي استشهد أبناؤها السبعة بين 161 و165 ميلادي، ووجدتُ طفلا في سنّي يلعب في حديقة الكنيسة مع صديقه بقطع بيضاء وسوداء على رقعة مربعة الشكل وبها مربعات سوداء وبيضاء... وقفتُ لمشاهدتهما وتشمَّمْتُ لأوّل مرّة رائحة الشطرنج من خلل السور الواطئ ذو الأعمدة الحديدية التي تُذكّر بالسجون القديمة التي كنّا نشاهدها في الأفلام التلفزيّة،

كانت الرائحةُ تشبه رائحة أحجار القمر هكذا بدا لي الوصف حينها رغم أنّني لا أعرف إن كانت سقطت أحجار من القمر أم لا! ومازلت إلى اليوم أعتقد أن لعبة الشطرنج هي لعبة إلهية كانت الآلهة تتبارز بها في السماء لتحديد أقدار الحرب على الأرض وفي يوم من الأيّام كان إله الريح يتبارز مع إله البحار لمعرفة مصير حرب «بحيرة تراسيمان» بين حنبعل وفلامينوس، إلاّ أنّ إله الريح غضب غضبا شديدا بسبب الكمين الذي سطّره إله البحار وأوحى به لحنبعل فقضى الكثير من جنود الرومان غرقا في «بحيرة تراسيمان» وهم فارّون من عدوّ لم يفهموا أين هو... وأحسّ إله الريح بالإهانة بسبب الخدعة التي تصرّف بها إلاه البحار وهو ما جعله يرمي برقعة الشطرنج بأقصى عظمة الرياح فهبطت إلى الأرض وسقطت في قرية قريبة من قمة جبل إفرست في الهند ومن ذلك التاريخ أصبح الشطرنج لعبة أرضيّة انتشرت من الهند وغزت بقيّة بقاع العالم...

وأنا أتأمّل حركة الملكة في رقعة الشطرنج وهي تتحرّك يمينا ويسارا ومن الأسفل إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأسفل وفي كل الاتجاهات في مقابل الحركة الهرمة للملك المقيّد، بدا لي أنّ الهيمنة الذكوريّة التي تحدّثت عنها سلمى في بحثها الجامعي - وهي بصدد إعداده-لا يستوعب علاقات «مجتمع الشطرنج»، في علاقة بالبناء الاجتماعي. إذ تعزو للنساء مكانتهنّ الاجتماعيّة كمتاع للتبادل تبعا لمصالح الرجال وهي بذلك خُصّصت لتساهم في إعادة إنتاج الرأسمال الرمزي لهم حيث يكون اقتصاد العنف حكرا عليهم دون غيرهم وتتعرّض هي بذلك للاضطهاد ويتمّ

اختـزال النسـاء فـي وسـائل رمزيّـة للسياسـة الذكوريّـة.

فـي حيـن أنّ الأمـر يختلـف مـع الملكـة فـي «مجتمـع الشـطرنج» إذ أنّهـا تحـوز علـى سـلطة متعاليـة علـى كل الرجـال بمـا فـي ذلـك الملـك بوقـار بدلتـه الرسـميّة البيضـاء وفخامـة صدريّتـه المرصّعـة بالذهـب وتاجـه المرصّـع باللآلـئ البرّاقـة وصولجانـه الذهبـي. فمقابـل خطوتـه الثقيلـة وشـيخوخته الفطريّـة وكبريائـه الفاتـر، تمـارس الملكـة عنفـا ماديّـا علـى كل الأفـراد والمجموعـات مـن الجنـود حتـى الملـك مـرورا بالفرسـان والقـلاع والـوزراء. تمشـي الملكـة وقـورة بجسـدها المسـتقيم وفسـتانها الحريـري وحمّالـة نهديهـا السـاتان وظهرهـا العـاري وتاجهـا المرصّـع بالألمـاس وقفّازاتهـا البيضـاء وهـي تعبـق برائحـة زهـور الياسـمين، تـارة تطـلّ مـن القلعـة وتـارة أخـرى تُحـدّث أحـد الـوزراء وطـورا تدخـل علـى الملـك لطمأنتـه علـى سـير المعركـة وفـي الأثنـاء بيـن هـذا وذاك تقـوم بالقضـاء علـى الأعـداء واحـدا واحـدا ومحوهـم بقفـزات غيـر متوقّعـة ودم بـارد كضـرورة منطقيـة لمعنـى القيـادة. وأثنـاء قيامهـا بـكلّ ذلـك تُراكـم سـلطات بعيـدا عـن كل إكـراه خارجـيّ، وحقوقـا دائمـة علـى بقيّـة الأحيـاء فـي حلبـة الصـراع، وهـو مـا يمكـن أن يُنتـج تفاوتـا فـي الهيمنـة فـي سـعي دؤوب لمحاصـرة الملـك وقتلـه. وهـي بذلـك تبـدو لـي معاديـة لـكل شـكل مـن أشـكال العبوديّـة الاجتماعيّـة إلـى حـد أنّ وقوفهـا فـي طابـور الانتظـار خلـف الخـط الأوّل للبيـادق السـاهرين علـى حمايتهـا وحمايـة الملـك يُشـعرها بأنّهـا مظلومـة ومهانـة فـي حريتهـا. والتنـازل الوحيـد الـذي تُقْـدِمُ عليـه هـو التخفّـي خلـف البيـدق خوفـا مـن إصابتهـا

برصاصة طائشة من أحد قطع ابني مجد وهو يحرّكها كقائد حربي سليل حنّبعل. إنّ إحساس الملكة بأنّها تنتمي إلى قطيع مؤلّف من أناس صامتين ومنزوعي القدرة عن الكلام، يُصيبها بالغضب إضافة إلى أنّ القطيع في أزمنة البلبلة يفضّل العبوديّة على الفوضى ومن هنا فإنّ من يتصرفون كالماعز لا يكون لهم زعماء يحكمونهم وإنّما تيوس. لذلك آلت على نفسها أن تتحمّل مسؤوليّة الحكم وإعلان الحرب وعقد اتفاقيّات السلم في «مجتمع الشطرنج» ليجعل ذلك من التناظر، كما يبدو لي، أمرا جذريّا بين الرجل والمرأة. فلم يعد هو ذاتا وهي موضوع التبادل ولم يعد الرجل هو المسؤول وسيّد الإنتاج وإعادة الإنتاج والمرأة/ الملكة المنتوجُ المُحوّلُ لهذا العمل.

ولكنّني وأنا أرى مجد يُحفّزني كي أحرّك القطعة الموالية أكتشف أنّ الملكة وإن كانت منذورة للتجوّل بين الرجال الجنود والوزراء والخيّالة والفيلة والقفز من قلعة إلى أخرى فإنّها في الحقيقة مُختَزلة في مكانة وسيلة إنتاج وإعادة انتاج الرأسمال الرمزي والاجتماعي وذلك عبر الدفاع عن الملك والذود عنه وتقديم حياتها قربانا له إن لزم الأمر!

في الأثناء يصرخ مجد صرخة انتصار عظيم مُلوّحا بقتل الملكة عن طريق جندي بسيط منحدرٍ من أحد أرياف «بوعرادة» القريبة من قرية «بيجقة» ولم يكمل بعدُ سنوات تدريبه على سلاح المدفعيّة، وفي الحركة التالية يقوم بمحاصرة الملك بالحصان الأشهب خلف القلعة البحرية وقتله، لتنتهي مغامرة

الملكـة التراجيديـة وهـي تسـعى لقلـب الأدوار دون أن تفكّـر في تحرير الجنـود الذيـن كانـوا تحـت إمـرة الملـك ويسـهرون علـى حمايـة مُلْكِـهِ وعلـى حمايتهـا ليـس كـذات مسـتقلّة وإنّمـا كأحـد ممتلـكات المملكـة!

وبسـبب غبـاء الملـك وهيمنتـه الذكوريّـة المسـتمرّة، سـأجد نفسـي مضطـرّا لإعـادة مبـاراة أخـرى مـع مجـد ولـن يُفـرجَ عنّـي إلا إذا انتصـرتُ عليـه أو شـعر هـو بالملـل مـع غـروب الشـمس.

- 7 -

الأحد 29 مارس 2020

«لولا الفايسبوك لكان الحجر الصحي الالزامي في البيت جحيما» كان لهذه الجملة حلاوة وهدوء عظيمين وأنا أردّدها في نفسي، إذ أصبح الفايسبوك والميسنجر والواتساب والتويتر والتواصل السمعي البصري هِبة «العولميّة» التي يتحوّل معها البيت إلى خرافة يتوسّطها بستان رائع بأشجار مثقلة بالفاكهة المغتبطة في جزيرة غارقة في النور... حين أدخل إلى العالم الأزرق، أتمدّد في الكنبة وأشعر أنّي في قطار ينتقل بي إلى مدن عديدة، أمكث لساعات طويلة وأقلّبُ الصفحات بشراهة وأحدّق بشغف في الصور التي ينشرها أصدقائي الافتراضيين وأقرأ المُلَحَ فأضحكُ لوحدي وأقرأ بيانات المناضلين ضد الاستبداد وضد الاضطهاد وضد القمع وأقرأ النصوص فأحزن أحيانا لوفاة أحد أقارب الأصدقاء وأفرح لارتقاء موظّفة أو نجاح طالبة في نشر كتاب شعري جديد أو صدور رواية جديدة ويمتلأ خيالي بِكُرَاتٍ عملاقة من الثلج وحيوانات غريبة وأجوب في لحظة أبعد القارّات والمحيطات وأتحوّل دون أن أدري إلى طائر بأجنحة

كبيرة وأحلّق عاليا خارج القطار، وأذهب باتّجاه صور الجميلات التي تثيرني فأغازل صديقة افتراضيّة من «جامايكا» وأستفزّ كاتبا تونسيّا من سيدي بوزيد لا يتوقّف عن انتقاد زملائه من الكُتّاب دون أن يجرأ على الكشف عن اسم أيّا منهم وأتحدّثُ مع غلاميّة مقيمة في هولندا عن العلوم الصوفيّة...

حين فتحت صفحتي هذا الصباح وجدت إحدى الصديقات الافتراضيات كتبت لي في المسنجر «صباح الخير» وقبل أن أردّ على تحيّتها «صباح النور» لاحظتُ أنّها بصدد الكتابة في الجهة الأخرى من خلال ظهور ثلاثة نقاط متقافزة وبعد برهة رنّ المسنجر معلنا على وصول الرسالة:

«تبدو لي من خلال هيئتك الأنيقة شخصا مؤدّبا وحتّى حين رأيتُكَ في المكتبة الوطنيّة بمناسبة مواكبة محاضرة ألبرتو مانغويل في شهر فيفري الماضي بدوت لي رجلا خجولا. ولكن حين قرأتُ كتابك الأخير «هذا الذي يقوله الجسد» صُدمتُ للإباحية الفاضحة! كان عليك أن توزّعه في المواخير لا في المكتبات. وحتّى حين قرأتُ ما تكتب من تدوينات في صفحتك اكتشفتُ انسانا آخر غير ذاك الذي يظهر في الفضاءات العمومية وفي وسائل الاعلام تنمّ شخصيّته على كثير من الاستهتار والتهكّم والبذاءة وقلّة الأدب... الأدب يا هذا لا يعني أن تعتدي على أخلاقنا وديننا وأذواقنا».

أنهتْ جملتها وقبل أن أردّ عليها لتفسير وجهة نظري في معنى الأدب ودوره في مجتمعاتنا وشرح موقفي من الفارق الجوهري بين الأخلاق والقيم قامت بحظري من قائمة أصدقائها!

إنّ ما يعجبني في صفحات الفايسبوك التونسية قدرتها الفذّة على الانزياح وتحويل أي معلومات أو أخبار مهما كانت درجة حزنها إلى نكات تهكّميّة ضدّ السلطة أو ضدّ ممثلي الله في أجهزة الدولة، إنّها توزّعُ الجمال يمينا ويسارا وتروي الأحداث اليومية والشخصيّة لأصحاب تلك الصفحات حتى يخيّل إليّ أنّنا نعيش في بيت واحد كبير وبلا أبواب...

وحين أغرق في الصمت أشعر كأنّي أسمع وقع أقدام سريعة على السلّم تندفع إثرها عائلة أخت زوجتي سلمى وتقتحم علينا الصالون دون استئذان، من خلال شاشة هاتف ذكيّ ذكاء لا مثيل له، ويغرق طفلاي مايا ومجد في هرج مع خالتهم أو زوج خالتهم أو أبنائهما، تُطلّ الخالة من بعيد عارية الرأس ومسدلة الشعر من خلال الكاميرا مُسلّمَةً عليّ وأشمّ رائحة عطرها تملأ الغرفة، رائحة تشبه تلك الروائح التي تنبعث من شوارع المحلاّت المكتظّة بالمارّة حيث يستنشقها المرء في لحظة ثم تختفي، وأكاد أحسّ الملمس الغريب والغامض ليديها فأشعر بالحرج بسبب ملابس النوم التي أرتديها من جهة، وبسبب رؤيتي لشعرها العاري الذي طالما كانت تغطّيه بحجابها كلّما زرتهم في بيتهم في سوسة من جهة أخرى. أرسم قبلة بكفّي في الفضاء مُداريا ارتباكي ويبدأ تبادل المعلومات حول حالات الإصابة بالوباء وطريقة تصرّف

أجهزة الدولة في الأزمة وتقصير الحكومة في مقاومة الاحتكار وغلاء الأسعار والخوف من أن يُحوّل هذا التقصير جزء من الشعب إلى جوعى بوجوه شاحبة يفتقدون الرغبة في الحياة قبل أن يفتك بهم فيروس كورونا المستجد ويُحوّلهم إلى جُثث لن يعثروا لهم على مكان لدفنهم...

عندما اتخذتْ عديد الحكومات في العالم قرارات «الحجر الصحّي الاجباري الشامل» بدأ الفلاسفة في التفكير في مسألة تراجع الفضاء العام بمعناه الهبرماسي (نسبة إلى الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس) باعتباره فضاء عموميّا يجتمع فيه الأفراد تحت رقابة النظام ويتمّ فيه تبادل الآراء بحريّة ونقد السلطة وتمّ اعتبار «عودة العالم إلى البيت» فجأة، نهاية هذا الفضاء العام في حين أنّ وسائل التواصل الرقمية جعلت من أكثر الفضاءات خصوصيّة فضاء يُمكنُ بكبسة زرٍّ وفي أيّة لحظة أن يتحوّل إلى فضاء عام بكل خصوصيّات الفضاء العام منزوعا منه الجانب المادّي (بمعنى حضور المواطنات والمواطنين معا في فضاء هندسي يجمع بينهم تقارب جسماني محسوس)، بل ويتحوّل فيه الأفراد إلى نقّاد شرسين لأداء الحكومة بعيدا عن كل رقابة. زد على ذلك أنّ حركات مدنيّة تنشأ من خلال الفضاء العام الافتراضي فيتمّ توقيع العرائض والتنظّم في مجموعات رقمية للقيام بأعمال تضامنية وخيريّة لفائدة المعوزين أو المصابين بالفيروس أو لمساندة أجهزة الدولة الصحيّة... ولكن أين الشعر؟

- 8 -

الاثنين 30 مارس 2020

لـم تطفـئ الحريّـة التـوق إلـى الحريّـة! إنّ مـا يحـدث اليـوم شـبيه جـدّا بحـرب عالميّـة غيـر تقليديّـة وغيـر معلنـة لطالمـا انتظرتهـا البشـرية وتوجّسـت منهـا منـذ نهايـة الحـرب العالميّـة الثانيـة وبدايـة التسـابق المحمـوم بيـن المعسـكرين الشـرقيّ والغربـيّ علـى تطويـر الأسـلحة النوويّـة والأسـلحة الكيمياويّـة والأسـلحة الجرثوميّـة حتّـى تبـادر إلـى الأذهـان اليـوم أنّ فيـروس كوفيـد 19 ليـس سـوى سـلاح جرثومـيّ تسـرّب خطـأ مـن إحـدى القواعـد السـريّة لتطويـر الأسـلحة الاسـتراتيجيّة «مـا بعـد - غيـر التقليديـة».

إنّ الغريـب فـي هـذا الفيـروس أنّـه يدفعنـا إلـى التدبّـر فـي حياتنـا بطـرق مختلفـة وفـق أفـق تفكيـر مغايـر وفهـم مختلـف. «إذ أنّـه يقطـع مـع المألـوف ويعصـف بثوابتنـا ومسـلّماتنا فـي مـا يتعلـق بطقـوس المـوت والـولادة والحـبّ والـزواج والصداقـة والعزلـة والعمـل والزمـان والمـكان وسـائر العلاقـات والموجـودات والكائنـات... إنّ طريقـة التحيّـة تغيّـرت إذ لـم يعـد هنـاك عنـاق ولا قُبَـل وطريقـة الخيانـات الزوجيّـة تغيّـرت، وعلاقـات الحـبّ والخطوبـة والـزواج

تغيّرت، وطرق الاحتفال تغيّرت، وطرق الترفيه تغيّرت، وحتّى مدن الألعاب أغلقت أبوابها ولم تعد هناك ألعاب جماعيّة للأطفال، والمقاهي والحانات والمطاعم المكتظّة أطفأت أضواءها! والفضاءات التجاريّة الكبرى تلك التي حوّلت المواطنين والمواطنات إلى حدّ الآن، إلى حيوانات استهلاكيّة أغلقت أبوابها، والأسواق الأسبوعيّة اندثرت وحتّى دور العاهرات والمواخير قد تخلّت عنها النبوءات! ولا شكّ أنّ كلّ ذلك يهيّئ لتغيّر علاقات الإنتاج... إنّه فيروس له ملامح معلّمة صارمة تكره الاكتظاظ والفوضى وتعشق النظام والالتزام، فيروس دكتاتوريّ يقف ببزّته العسكريّة وقد غطّتْ كتفيه نجوم الليل الطويل ويقوم بإصدار الأوامر من أجل تطبيقها! بل إنّ أوامره صارت تُطبّق قبل أن يُصدرها وفي غالب الأحيان تُطبّق على نطاق أوسع ممّا تخيّله حكّام العالم!

لقد بدا لي أن هذا الفيروس كائن عاقل، بل هو مبدعٌ يلعب معنا لعبة الرسّام! إنّه بصدد محو العالم ليبعثه من جديد... إنّه يطلب منّا العودة الى البيت والتمدّد هناك دون فعل أيّ شيء مثل التماثيل الحيّة ويقوم هو برسمنا، أحسستُ أنّه يُضاجعنا دون أن تكون لنا القدرة على المقاومة!

شعرتُ في لحظة ما أنّنا صرنا أشبه ما يكون بأجسام سابحة في المجرّة دون أن يكون للجسم أيّ تماس مع جسم آخر. إذ أنّ الأفلاك التي تتحرّك فيها النجوم هي أفضل الأفلاك المهيّأة لحركة أكبر عدد ممكن من الأجسام دون أن تتصادم. ولكن الفارق الأساسيّ

بيننا وبين النجوم أنّها تتحرّك في فضاء لانهائي بينما نحن علينا أن نتحرّك في حيّز محدود مع ضمان تباعدنا ودون أن نلمس بعضنا البعض خوفا من العدوى.

وأحيانا يُخيّلُ إليّ في ضوء هذه الأفكار أنّنا أطيار أشبه بالجراد. كنّا نستيقظ في الصباح الباكر ونمضي إلى الحقل نعبث بالسنابل ونأكل الثمار ونلهو ونتلف المحصول وندمّر كلّ شيء في طريقنا، إلى أن نهضنا ذات يوم ومضينا كعادتنا إلى الحقول إلا أنّنا لمحنا يدا خفيّة، يدا ساحرة نصبتْ فزّاعة في هذا الحقل، فزّاعة تخيف أيّ مخلوق حتّى وإن كان رئيس حكومة العالم، فزّاعة صار لزاما أن تمنعنا من مواصلة العبث بالحقل.

ظل الفيروس الى اليوم يُطوّر حُجَجَهُ حول شكل حياتنا الجديدة بطريقة فتّانة دون أن يرفع صوته أو يخرج عن لامرئيّته بحيث أنّنا لا نستطيع مناقشة قراراته بقدر ما نحاول فهمها. فقراره بإيقاف الطيران الدولي كان قرارا حازما منذ البداية إلاّ أنّ الدول التي كانت تعتقد أنّها دولا عظمى تلكّأت في تنفيذ ذلك في بداية الأمر متجاهلة صدور القرار من طرف رئيس العالم السيد كوفيد التاسع عشر، إلا أنّها رضخت بعد ذلك لمشيئة السيد الأكبر. أمّا قرار غلق المدن الصناعية فقد بدا قرارا متهوّرا من طرفه إذ اتخذه دون استشارة مجموعة الثمانية ولا مجموعة العشرين ودون عقد مؤتمر دولي أو تهيئة الظروف الملائمة لاتخاذه لذلك شهد تنفيذه ارتباكا بل إنّ الارتباك مازال مستمرّا إلى اليوم. فقد لاحظ سيّد العالم تدميرا ممنهجا للطبيعة واعتداء صارخا على

البيئـة ولـم تسـتطع أيـة مجموعـة مناضلـة أو قـوة مناهضـة للنظـام الرأسـمالي إيقـاف القـوى التـي تقـوم بتدميـر الكـون وتغييـر المنـاخ لذلـك اتخـذ قـرارا أحاديّـا بإيقـاف الأنشـطة الصناعيّـة وغلـق الحـدود بيـن الـدول وبيـن المـدن وحتّـى الحـدود بيـن الغـرف فـي الشـقة الواحـدة قـام بغلقهـا! وهـو مـا جعلـه يشـعر بالضيـق وهـا هـو يترنّـح فـي تيـه عزلـة سـلطته الواسـعة.

أحسسـتُ فـي لحظـة مـا أنّ القـرار الـذي اتّخـذه كوفيـد التاسـع عشـر إنّمـا اتّخـذه ضـدّي أنـا بالـذات إذ شـعرتُ بالاختنـاق بسـبب الضيـق الـذي اسـتبدّ بـي فـي الشـقّة. وحيـن دخلـتُ حجـرة المكتـب ووجـدتُ نفسـي واقفـا تحـت ضـوء شـاحب وقـد امتـلأت خياشـيمي برائحـة الرطوبـة والغبـار الـذي ينبعـث مـن أوراق الكتـب القديمـة وقـد ملأنـي شـعور بالانهـزام واحسـاس بالنفـور ممزوجـا بالتفكيـر فـي ملـذّات الحيـاة البسـيطة التـي تركتهـا خلفـي، أحسسـتُ أنّ الماضـي قـد انتهـى إلـى الأبـد...

إلاّ أنّ القـرار بمكـوث العالـم فـي البيـت واغـلاق الإدارات والمـدارس والتوقّـف عـن الصـلاة فـي دور العبـادة والتوقـف عـن العنـاق والقبـل والمصافحـة كان القـرار الأكثـر قابليّـة للاسـتجابة ومـع ذلـك جعلـه يشـعر أنّـه أكثـر عزلـة مـن أيّ وقـت مضـى.

لكنـه توصّـل إلـى قناعـة أنّـه سـيتخذ القـرار الأكثـر ثوريّـة فـي الحلقـة المفرغـة مـن الحـرب الأبديّـة والـذي سـيجعل جمـوع البشـر تنتفـض ضـدّه وهـو قـرار الإقـلاع عـن التدخيـن! وهـي القـرارات التـي لا

يعرف أحدا لا لماذا ولا كيف ولا متى سيتمّ التراجع عنها.

- «لن تستطيع قراراتك أن تصمد لوقت طويل» هكذا قال له أحد جنرالاته وقد عاد للتو من ساحة الحرب مُلاحظا رغبة الفقراء في مغادرة البيوت من أجل لقمة العيش!

- «الأمر ينطوي على تناقض إذن؟» ردّ كوفيد التاسع عشر وكانت عيناه تقدح شررا.

لعلّ حرفة الإنسانية في اختراق هذه القرارات التي اتخذها، هي عزاؤه الوحيد الذي يُشعره بأنّه سيواصل التعايش معها لمدة طويلة...

- 9 -

الثلاثاء 31 مارس 2020

خلال كامل اليوم وكلّما غيّرتُ محطّة في التلفزة إلا وسمعت أهل السياسة والصحافة والاقتصاد وحتّى الطبّ يتحدّثون على أنّ العالم لن يكون هو نفس العالم بعد كورونا وهم يتوهّمون أنّهم يستطلعون المستقبل. في حين أنّ الكائن المُغيّب باستمرار منذ ما قبل الثورة وإلى اليوم والذي يمكنه أن يدرك ما تعجز الحكمة المدرسيّة لهؤلاء على إدراكه هو «الشاعر»!

فلا غرابة أن تجد في قصائد الشعراء وفي ما يُسمّى المادّة اللغويّة الخام صورا لما نحن فيه اليوم ولما سيكون عليه العالم بعد أقلّ من سنتين أو حتّى بعد أكثر من عقدين! فمنذ تسعينات القرن الماضي، تاريخ عودة الشعر إلى الذات، بعد الانهيارات الكبرى، تلك الانهيارات التي عصفت بمفهوم الحتمية التاريخية والاجتماعيّة وحتّى بالحتميّة العلميّة، أصبح الاستشراف لدى الشاعر يُمثّلُ آليّة نفسيّة، واستراتيجيّة روحيّة يؤشّر بها على المستقبل خصوصا وأنّه أصبح ذاتا متحرّرة من اليقينيّات القديمة أو بالأحرى مذنّبا متناهي الصغر سابحا في مجرّة مع مليارات النجوم.

وبنهاية الشاعر بالمعنى التقليدي، أصبح الشاعر الجديد، أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الشاعر العولمي»، متفاعلا مع حقول معرفيّة حديثة ارتبطت بطبيعة المجتمع وبالاقتصاد والعلم والسياسة والتقنية و«نمط العيش الذكي» ذكاء اصطناعيّا. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ اشتغاله في الجانب الروحيّ وانشغاله بالرؤيا العاطفيّة لمفردات الكون والوجود هو ما أضفى عليه صفة الشموليّة. وهو ما جعله يُدرك المستقبل اعتمادا على حدسه وعلى خبرته واستكشافاته الذاتية. ويتمّ له ذلك من خلال اعتماده على منهج شمولي يهتمّ بكلّ الظواهر والحركات استنادا إلى التراكم المعرفي الذي يمثّل فيه الشاعر الاستثناء الوحيد تقريبا لمنهج التخصّص وتقسيم العمل الذي قامت عليه الحداثة. إذ أنّه ومن أجل التعبير عمّا يُخالجه بنص شعريّ مُتجاوز للإرث الشعريّ فإنّه يشحذ دون أن يدري موهبته الشعريّة بالربط الضروري بين التاريخ والعلم السياسيّ والعلم التكنولوجي والعلم الجمالي اعتمادا على ما يتلقّاه يوميّا من نقد لحدود العالم المعاصر...

ولذلك فإنّ استشراف المستقبل هو اجتهاد شعريّ في الصميم، باعتبار أن المجاز هو «ما لا نتقبّله اليوم» ويرمي إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة والتي تشتمل على المعالم الرئيسية لوضعيّة خصوصيّة فرديّة أو جماعيّة ما، خلال فترة مُقبلة وذلك بالانطلاق من بعض الافتراضات الخاصّة حول الماضي والحاضر لاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبليّة على المجتمع...

قد يكون الأمر أعقد من ذلك بكثير وأكثر دقّة بحيث أنّ ملحمة قلقامش، باعتبارها أقدم ملحمة في التاريخ إلى حدّ الآن، أنبأت عن المستقبل القريب لأبطال الملحمة كالصداقة التي ستنشأ بين قلقامش وأنكيدو أو كموت هذا الأخير في رحلة البحث عن عشبة الخلود وأنبأت عمّا ستكون عليه بلاد الرافدين بعد ألف عام من الملحمة...

أمّا الالياذة فقد تنبّأت بما ستكون عليه أثينا في القرون الوسطى أمّا شكسبير فقد تنبّأ بما سيحدث في أنقلترا من ثورة بعد أكثر من قرنين!

أمّا الجريمة والعقاب لدوستويفسكي فقد كُتبت بروح شاعر وتنبّأت بالثورة الروسية بكل تفاصيلها... وهل يمكن أن نغفل الروح الشعرية لغابريال غارسيا ماركيز أو لأخطر متنبّي في القرن العشرين جورج أورويل في روايته «1984» والتي نشرها في 1948 وتنبّأ فيها بمآل الأنظمة الشموليّة وتفاصيل سحقها للحريّة الفرديّة وللحقوق البديهيّة للإنسان؟! ولعلّ الإنسانيّة اليوم تقف مشدوهة أمام عديد النصوص الشعريّة والأقاصيد والروايات الشعريّة والسرد الشعريّ والنثر الذي تكتبه الشاعرات والشعراء وهو يحاكي المستقبل وكأنّه يحاكي الماضي... وهذا المظهر العام للنص إن كان خطابا أو سردا يشكّل علاقة خطابيّة أو مشاركة سواء كانت خياليّة أو حقيقيّة تنحو للإخبار عن المستقبل باعتبار أنّ المعادلة الأساسيّة للشعر هي محاولة التماهي مع المطلق وهذا المطلق تتكثّف فيه الأزمنة: الماضي والحاضر والمستقبل حتّى

يصبح نقطة واحدة متقنة التصوير...

قبل أن يغرق العالم في الانشغال بحاضر الفيروس وقبل أن يفكّر في المستقبل، نشرتُ منذ شهر تقريبا مقالا يحمل عنوانا بدا حين نشره باهتا وربّما ينمّ عن جهلي وقلّة معرفتي بالاقتصاد العالمي وبالمؤسسات المالية العالمية... لقد حمل ذلك العنوان تساؤلا وإقرارا «هل هي بداية نهاية «العولميّة»؟ الفيروس الذي سيغيّر العالم، الفيروس الذي سيغيّر نظرتنا للعالم» وأشرتُ فيه إلى أنّ هذا الفيروس يمتلك مميّزات العولمية لأوّل مرّة في التاريخ. إذ أنّه مثل البشر والسلع والمعلومات ينتقل بسرعة فائقة وبلا حواجز وينتشر على نطاق جغرافي واسع، وهو ما سيؤدّي بالبشرية جمعاء أن تحتمي بالبيت من هذا الخطر الداهم وسيسمح «لإنسان الكائن» على حد عبارة يوسف الصدّيق أن يتوقّف قليلا عن المضيّ بسرعة فائقة إلى حتفه، ويتأمّل ولو لبرهة في ما أحدثه من خراب في البيئة...

وإذا نظرنا للتداعيّات الاقتصاديّة فإنّ كوفيد 19 سيكون له أثر فعّال ليس على النظام الليبرالي فحسب، ذلك النظام الذي هزم كل الحركات والأنظمة المقاومة له، وإنما على «النظام العولمي» الذي سيكون مهدّدا في جوهره وفي مفهومه إذا لم ينقذ نفسه بتغيير أساليبه وآلياته...

أمّا أنا فإنّني منذ زمان بعيد «مقيم في البيت» إن كانت الإقامة تعني الإنتاج الفنّي والالهام والكتابة. إنّ ما يقابل المكوث في

البيت هو تدمير العالم عبر اختطاف آلاف الملايين من الكائنات من بيوتها وتمريغ جباههـا بالوحل واقتلاع الصخور من الجبال وتشييد المعابد المدنّسة وتشييد القصور للمتكئين وحدهم على كنوز الذهب الأحمر والأسود والأصفر والأزرق والأخضر والأبيض عبر اقتلاع عيون الأم/ أمّنا الأرض... لا شكّ أنّنا نشهد الجيل الذي سيختنق برماد الكوارث الذي يسبّبها البشر...

إنّ المكوث في البيت الذي كنت أمارسه بالكتابة وبالتنظير لضرورة نهاية العمل حتى يبدأ التاريخ الجديد هو الشكل الأمثل لمقاومة الرغبة المستمرة في تدمير العالم... إذ لطالما حلمتُ باختراع حبّة تشبه حبّة الدواء يتناولها الرضيع في أولى ساعات ولادته وتكتنز تلك الحبّة كل ما يحتاجه الانسان في حياته من ماء وغذاء ولا يحتاج بعدها للرغبة في استهلاك أيّ شيء آخر. وهو ما سيؤدّي به إلى التوقّف عن الصراع وتدمير العالم وهو ما سيقوده بالضرورة إلى التوقّف عن العمل والتوجّه نحو الفنّ والحب والتآخي مع الطبيعة وكائناتها وهو ما سيؤدّي إلى بداية التاريخ الإنساني الذي سيكرّس ذكاءه من أجل توسيع وعيه بالكون وإقامته فيه. قد يبدو ذلك مثاليّا ولكنّه حتما سيتحقّق في يوم من الأيّام!

وها إنّنا اليوم ننتهي ولو جزئيّا من فكرة العمل التي حلمتُ بها، إذ منذ أن عاد العالم إلى البيت أصبح تفكيره مختلفا مُتركّزا على الفن والابداع انتاجا واستهلاكا... مُتفكّرا في مصير الحياة على الكوكب الأزرق ومُتآخيا مع أصغر الكائنات وأضعفها...

وتوقفتْ المدن الصناعية الكبرى عن النشاط، وتنفّسَ العالمُ برئتين جديدتين وأصبح الهواءُ أكثر نقاء والشمس أكثر اشراقا وزقزقة العصافير أكثر ابتهاجا...

- 10 -

الأربعاء 01 أفريل 2020

عندما زقزقت العصافير في نافذة حجرة نوم الأطفال لأوّل مرّة بعد أشهر الشتاء الطويلة ابتهج مجد وقفزت مايا فرَحا...

- بابا هيّا نضع الزؤان على الشبّاك للعصافير

كانت هذه عادتي التي دأبتُ عليها منذ زمن طويل وهو اتفاق ضمني بيني وبين عصافير النافذة: أنا لا أحبسها في قفص وهي لا تحرمني غناءها مقابل نثر الزؤان في شبابيك البيت!

واستمرّت هذه الاتفاقية على مدى سنوات طويلة وكنّا أنا والعصافير نجدّدها كلّما غيّرتُ الإقامة من بيت إلى آخر...

كانت زقزقاتها الصباحيّة ألغازا تحمل لي أخبار اليوم وكنتُ أترجمُ تلك الألغاز بطريقة سريعة وعادة ما تكون ترجمة صائبة

«اليوم ستلتقي امرأة حياتك»! كانت هذه جملة واضحة سمعتها صباح الثاني عشر من فيفري الموافق للثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ست وتسعين وتسعمائة وألف عندما كنت في

فـراش النـوم فـي غرفتـي فـي بيـت الوحـوش فـي مدينـة أريانـة.

كان بيتـا ينتشـر فيـه الظـلام فـي كل ركـن شـبيه بقبـر شاسـع جـدّا ومحـاط بالحديـد مـن كل جوانبـه... أبوابـه الحديديّـة تثيـر رعـب مَـن ينظـر إليهـا. كنـت كلّمـا نمـتُ فـي الظـلام أشـعر أنّـي أرتفـع إلـى سـماوات بعيـدة ولكـن مـا جعلنـي أصمـد فـي ذلـك البيـت أنّنـي لـم أكـن أخشـى السـقوط. وبسـبب إشـاعة سـرتْ بشـكل واسـع جـدّا فـي سـنوات خلـتْ مفادهـا أنّ ذلـك البيـت تسـكنه الأرواح الشـريرة، كنـتُ كلّمـا خرجـتُ فـي الصبـاح فـي هيئـة خبـزة خرجـت للتـوّ مـن الفـرن الحديـدي يفـرّ المـارّون الذيـن صـادف وأن كانـوا يعبـرون قريبـا مـن البيـت. لا شـكّ أنّـي كنـتُ أبـدو لهـم روحـا نهضـت للتـوّ مـن قبرهـا ولبسـت جثّـة وخرجـت إلـى العالـم...

هرعـتُ إلـى النافـذة فوجـدتُ العصفـور الـذي حدّثنـي بتلـك الزقزقـات مـازال ينظـر إلـيّ ممتنّـا وهـو ينقـرُ الـزؤان. حيـن نهضـت وارتديـت ثيابـي بهـدوء بقيـتُ صامتـا وظللـت أطـوف غرفتـي ذهابـا وإيّابـا لربـع سـاعة ثـمّ قـرّرتُ الذهـاب إلـى الكليّـة لحضـور درس القانـون الإداري الـذي أحـبّ. شـددتُ أزرار المعطـف حتّـى عنقـي واتجهـت بسـرعة إلـى محطـة الميتـرو كانـت المسـافة القصيـرة الرابطـة بيـن البيـت والمحطّـة مليئـة بالمـارّة وببـرك المـاء بسـبب أمطـار الليـل. حيـن ولجـتُ إلـى كليّـة العلـوم القانونيّـة والسياسـية والاجتماعيّـة بُعيـد العاشـرة صباحـا كان الطلبـة قـد التحقـوا بمقاعدهـم فـي حيـن أنّنـي لـم أتمكّـن مـن تناسـي تلميحـات ذلـك العصفـور المحتـرف والتـي ردّدتُهـا حتّـى حفظتهـا ودون أن أتسـاءل إن كان الوقـت مناسـبا غـادرت الكليـة

وركبت الميترو متّجها إلى دار الكاتب.

لم تكن دارُ الكاتبِ منزلَ كاتبٍ مشهورٍ كنت أزوره بشكل يومي، مثلما اعتقدتْ ذلك أخت سلمى وخشيت من خياناتي بعد سنوات من ترددي الدائم على الدار، وإنّما كانت ناديا يلتقي فيه الأدباء والصحفيون ومختلف المبدعين به مشرب ومطعم ويتوقف في شهر رمضان عن بيع المشروبات المُسكرة.

لم يمر منتصف النهار حتّى جاءت سلمى صحبة صديقتها التي تدرس معها في كلية العلوم الإنسانية بتونس إلى الدار التي تدخلها لأوّل مرّة. هرعتُ إليها مُسلّما فقد مرّت أشهر طويلة لم ألتقيها وكنتُ أتحيّن الفرصة تلو الفرصة لأجلس إليها وأتقرّب منها فلربّما انتبهت إلى اهتمامي بها.

التقيتها في السنة الدراسيّة التي سبقت في كليّة العلوم الانسانيّة إذ كنتُ كلّما ضجرتُ من صرامة القانون وجفافه ومن الفراغ الثقافي والسياسي بعد تصفية الحركة الطلابية منذ بداية التسعينات، أهرب إلى كليات الآداب والفلسفة والتاريخ، ألتقي أصدقائي وصديقاتي من الشعراء الطلبة وأواكب بعض الدروس كلّما خطر لي ذلك... كانت سلمى من بين القرّاء النهمين للرواية العربيّة والعالميّة ومن بين الطالبات المهتمّات بالشأن الثقافي والابداعي ما جعلني أقول في نفسي عندما رأيتها أوّل مرّة: يا لجمال فتاتي المهمومة بعينيها السوداوين وقدّها الفارع وصوتها الخشن ذو البحّة اللذيذة وروحها الشفّافة والنقيّة، نقاءَ الأبديّة، في

فـردوس الكلمـات الأعلـى! سـعيتُ فـي تلـك السـنة لملاقاتهـا ولكـن لـم يحالفنـي الحـظ فـي مـرّات عديـدة رغـم اجتهاداتـي المتكـرّرة إلـى إن انتهـت السـنة الدراسـية وعدنـا إلـى مدننـا هـي إلـى قريـة الكنائـس وأنا إلـى لامـكان. إذ كنـتُ أتـردّد بيـن بيـت أمّـي فـي جندوبـة وبيـن مـدن كثيـرة مشـاركا فـي مهرجاناتهـا الصيفيّـة وأمسـياتها الشـعريّة.

لـم يمـر وقـت طويـل حتّـى انهـال الأصدقـاء علـى طاولتنـا كالذبـاب كنـت أثرثـر كمـا لـم أفعـل مـن قبـل متحدّثـا عـن الكتـب الملعونـة وعـن الخبـز اليابـس الـذي اسـتضفت عليـه شـاعرا تحدّثـت عـن قصـص الحـب الفاشـلة التـي عشـتها منـذ طفولتـي وعـن الرسـائل التـي كلّمـا أحرقتهـا سـمعتُ صـراخ حبيبتـي الغابـرة فـي غرفتـي، ولطالمـا سـمعت شـيئا فـي الهـواء ينتحـب والأشـكال الغائبـة تتنهّـد فـي الطـرف الآخـر مـن الليـل الكثيـف. «إنّهـا قصّـة حقيقيـة وليسـت تهويمـات وإذا لـم تصدّقـي قولـي بإمكانـك أن تأتـي معـي إلـى البيـت لتتأكـدي بنفسـك» هكـذا قلـتُ لهـا وأنـا أسـتدرجها إلـى إحـدى أركانـي المنسـيّة! حدّثتهـا عـن قراءاتـي المتقـدة وعـن جسـدي الـذي ابتلعـه الغـول بسـبب غيـاب الحـبّ وعـن أحلامـي المـوءودة، حدّثتهـا عـن حبّـي للمقابـر وعـن ولعـي بالجماجـم «حتـى أنّـي لا أعـرف إن كنـتُ حقّـا هـذا الشـخص الـذي تركتُـه جالسـا علـى حافـة السـرير أم أنّنـي الكائـن المتلعثـم فـي لوحـة الجماجـم المعلقـة فـي غرفتـي خرجـتُ اليـوم لألتقيـكِ!».

كان الأصدقاء مثل رهط على هيئة القيح يحاولون تحويل اهتمامها بي إلى سطح الأشياء... شربتُ آخر رشفة من قهوتي ونظرتُ إليها نظرة من عثر على بئر في الصحراء ويخشى أن يغرق قبل أن يروي ظمأه وأدركتُ أنّني معها سأكتبُ قصيدة بلا لغة وستحتشد الرغائب المتناثرة في القصائد العاجزة وستحتشدُ لنداء العينين السوداوين ذاتهما اللتين ستدعوانني بعد مرور السنين إلى الوقوف على الهاوية...

حين غادرنا دار الكاتب كان الأصدقاء مازالوا مصرّين على مرافقتنا. توجّهنا جميعنا إلى محطة الحافلات لتوديع سلمى وكان عليّ أن أفرّ من ذاك الحصار الذي ضُرب عليّ ليمنعني من دعوتها لتناول الإفطار معي وفي اللحظة الحاسمة وبعد أن ركبت سلمى الحافلة وعندما همّت بالسير قفزتُ قبل أن ينغلق الباب وتركتُ الجميع في المحطّة. نظرتُ من النافذة فوجدتُ علامات الحيرة ممزوجة بالاستغراب على وجوههم وبدت لي كأنّها نظرات حاسدة.

أخبرتُ سلمى أنّني كمن كان يهرب من أشخاص غلبهم الفراغ فحوّلهم إلى وحوش وقد طعن الفقد قلوبهم. حدّثتها عن رغبتي في سرد قصة حياتي البائسة على مسامعها على إفطار رمضاني وعن رغبتي في قراءة شيء من الشعر أمامها.

- لا تضف شيئا فلنذهب حالا!

هكذا قالت سلمى قبل أن تدعوني للنزول من الحافلة في المحطة الموالية. توجهنا إلى محطّة الميترو في ساحة الجمهورية ولم يطل انتظارنا.

حين وصلنا إلى بيت الوحوش في شارع الطيب المهيري بأريانة كانت الشمس قد قاربت على الغروب وكان علينا أن نعدّ العشاء قبل أن يعلن آذان المغرب عن موعد الإفطار. كان بوسعي أن أوفّر طاولة صغيرة لتناول المقرونة بالتن التي أعدّتها على عجل وأن نأكل المندرينة.

بعد الإفطار ظللتُ أثرثر وتجاوزتُ متاهات كانت تنام في ظلمات الكتب واستحضرتُ كلّ حِكمي التي اعتقدتُ أنّي تعلّمتُها من تجربة الحياة إلى ذلك الحين. كنت أحدّثها وكانت تنصت لي طوال الوقت بانتباه وكنتُ أتأمّل عينيها اللتين كانتا تلمعان ببريق الاستنتاجات وكنت أرى فيهما حياتنا القادمة.

كان عليّ أن أرافقها لتستقل سيارة تاكسي على أن تصل قبل الساعة التاسعة ليلا إلى مبيتها الجامعي في العمران الأعلى. مشينا معا تحت رذاذ المطر وقطعنا المسافة دون أن ننبس ببنة شفة بين نهاية شارع الطيب المهيري أين يقع بيت الوحوش الذي أسكنه وإدارة البريد التونسي في أريانة إذ كان كلّ منّا غارق في أحلام المستقبل بينما غرقتُ أنا إضافة إلى ذلك في رائحتها الشبيهة بيوم الخميس الذي أحبّ...

- هل سنلتقي يا سلمى بعد اليوم

- بالتأكيد سنلتقي

- متى وأين؟

- لا أعرف ولكن الأكيد سنلتقي

- وإذا لم نلتقي؟

- اللهمّ إذا مت..

وقبل أن أحدّد الموعد ومكان اللقاء القادم، كانت التاكسي قد أخذتها إلى آخر أضواء الشارع الطويل وتركتني تحت مطر شهر فيفري في ظل غامض يرتعش تحت الأضواء المرتبكة جعلني مثل فواصل في جمل مهشّمة متردّدا بين الولوج إلى أي مقهى وبين العودة إلى البيت. أخذتني قدماي إلى حيث كنّا منذ قليل في غرفتي التي لم تعد ملاذا للوحوش مثلما عهدتها من قبل إذ حين ولجتها من جديد كانت ظلال ساعات النهار الأخيرة مازالت مرسومة في كلّ ركن مثل نجوم تخفق في أعماق جاذبيّة غامضة وكانت نظرات الوحوش التي كنت ألقاها كل يوم قد تركت مكانها لحيرة أليمة بزغت بغنائها الشجيّ وهي متمسّكة برغائبنا المكتومة، لزوبعة لا اسم لها ستظلّ تعصف خلال سنوات طويلة لتقذف بنا إلى هذا الزمن الذي نحيا فيه جائحة الكورونا بعد ربع قرن على ذلك الزمن الذي كنّا نخفي خلاله ما نحسّ به...

- 11 -

الخميس 02 أفريل 2020

كنت طوال الأيّام الماضية منشغلا بتنظيم حياتي مع طفليّ مجد صاحب الرغبة الجامحة للعب كرة القدم فكان عليه أن يهيئ ملعبا طوله مترا مربّعا واحدا وعرضه نصف متر بعشب اصطناعي بين التلفزة والكنبة ويصنع كرة من جواربه بعد أن يكون أدخلها في فردة قفّاز شتائيّ أحمر وضغطها بطريقة تجعلها مكوّرة قبل أن يطلب منّي باستمرار أن أشاركه لعبه وإذا ما رفضت الاستجابة لطلبه عليّ أن ألعب معه مقابلتين في لعبة الشطرنج.

أمّا مايا ذات الأربع سنوات والأفكار الخلاّقة والعينين السوداوين والشعر الفاتح والخيالات الغريبة التي تجعل من كورونا دمية لم تجد ما تأكل وعندما لم تعد تصبر على الجوع خرجت إلى العالم وأصابت الكبار الذين لهم أموال لشراء الشكولاتة ولكنهم لم يشتروا لدمية كورونا شكولاتة. وبعد أن تسرد قصّتها الغريبة تطلب منّي بصوت يربك كل حواسي:

- Papito أعطني شوكولاتة

- ليس لدينا شوكولاتة، ألم تأكلي منذ قليل؟

- عندنا، عندنا، عندنا، عندنا

- مايا يكفي!

- طيب لا تصرخ، صراخُكَ يؤلمُ لَقَبِي! أعطني حلوى.

ومع ذلك لا تتركني إلاّ وقد حصلت على أكثر ما ترجوه. وبعد ذلك تطلب منّي أن أرسم لها طائرة أو دمية أو بيتا أو فراشة لتقوم هي بعد ذلك بتلوين تلك الرسوم بالألوان المائية. وفي غالب الأحيان تطلب أوراقا بيضاء وتكتب رسائل طويلة وتطلب منّي بعد ذلك قراءة تلك الخطوط الغامضة والدوائر غير المتقنة والأشكال التي لا يدرك عقلنا الهرم لها معنى. وعندما أشرع في القراءة باختلاق نَصّ رسالة وَجَّهَتْهَا إليَّ أو إلى أمّها تقوم هي بتصحيح أخطائي... وعندما تشعر بالقلق تقف أمام جهاز التلفزة وتنغمس مع موسيقى رموشها في رقصة الباليه

وأمّا السيد مجد ذو السبع سنوات والتفكير الجريء، فإنّه لا يبحث في برامج التلفزة إلا على سلسلة «شوفلي حل» الهزلية أو عن القنوات التي تبث المقابلات الرياضيّة وكأنّه يتجوّل في غابة زيتون تشبه حبّاتها خصل شعره وعينيه وأوردة عنقه الزرقاء الفاتحة. فمنذ الحجر الصحّي انقطع عن التمارين في أكاديميّة الأبطال لكرة القدم أين كان يُقَضِّي أمتع الأوقات مع أصدقائه أربع مرّات في الأسبوع وكنت في غالب الأحيان أواكب تمارينه

وكان كلّما سجّل هدفا في مرمى المنافس يركض إلى وسط الملعب فرحا بإنجازه الاستثنائي وكان إذا لعب مقابلة ولم يسجّل هدفا يحزن حزنا كبيرا وفي بعض الأحيان أنتبه إلى بكائه في زاوية في غرفته المشتركة مع مايا مُتعلّلا بأسباب أخرى للبكاء إلى أن ينام.

في هذه الأيّام منعته «مادام كورونا» (كما يحلو له أن يسمّي الفيروس) من الذهاب للتدرّب في الملعب فهيّأ ملعبا في الصالون ولبس زيّه الرياضي ولم ينزعه لا وقت المطالعة ولا وقت الأكل ولا حتّى وقت النوم. وبدا لي أنّه انتصر على الحصار الذي سبّبه له الفيروس بل إنّه حقّق نتائج لم يكن يحلم بها. إذ أصبح يتدرّب يوميّا في ملعبه بِكُرَةِ القفّاز الأحمر وأصبحتُ أنا ألعب معه أيضا وكذلك أمّه عندما تكون بيننا، وأحيانا أسدي له النُّصح بدلا من المدرّب (...) وكان كلّما كسّر شيئا يتوسّل إلى أمّه مُعتذرا ولن ينقشع الحزن من عينيه ويعود إليهما بريقهما الوحشي إلا حين تقبل اعتذاره...

وهكذا تنقضي أيامنا!

- 12 -

الجمعة 03 أفريل 2020

في سكون النهار الذي يشبه تماما سكون الليل، أشعر بالرعب من الصمت المتسلّل مع شمس الربيع المتّسخة بالغيوم، البرد شديد على غير العادة والحياة خالية من معناها مثل مقبرة بلا عصافير، وعلى الكنبة التي قضّيتُ فيها ليالـيّ السابقة أتمدّد متأمّلا. لم يعد البيت ركننا في العالم يا «باشلار» بل صار هو عالمنا وصار العالم الخارجي بقعة صغيرة في عالم البيت. لقد بدأتُ في التحوّل وشعرتُ أنّني بدأتُ أتضاءل وأصبح البيتُ شاسعا بل إنّه أصبح شيئا فشيئا شاسعا جدّا. فقد صرتُ أقضي وقتا طويلا لأقطع المسافة بين الصالون والمطبخ. وتحوّلت مكتبة البيت إلى عاصمة يفوق عدد سكّانها سكّان الأحياء المجاورة. سألتُ مايا الفتاة المراهقة في رواية «دفتر مايا» لإيزابيل الليندي بإيماءة إعجاب واسعة عن موقفها من وباء كوفيد 19، وصحّحتُ في الحال أسلوب نيتشه الذي تخطّى الرسميات في ترجمة بليدة قائلا له: «معذرة يا صديقي على سلوكي ولكن هل أنت متيقّنٌ ممّا تقول حول الأخلاق في ترجمة ذلك المشرقي الذي بالكاد

يـدرك بعـض الكلمـات الألمانيّـة ويترجـم عـن الفرنسـيّة وهـو لا يتقـن غيـر فرنسـية دارجـة؟ !» ثـمّ دعـوتُ «يافيمـوف» فـي روايـة «نيتوتشـكا نزفانوفـا» لدوستويفسكي لزيارتـي. وصلـتُ إلـى المطبـخ بعـد مسـيرة نصـف يـوم وجهّـزتُ قهوتيـن ومشـيتُ مسـيرة نصـف يـوم آخـر للوصـول بهمـا إلـى الصالـون حيـث وجـدت الشـمس قـد غربـت ووجـدت عـازف الكمـان «يافيمـوف» جالسـا بغـروره وصلفـه فـي انتظـار شـيء مـا. حيّيتـه بحـرارة علـى قبـول الدعـوة فـردّ علـيّ بطريقـة تنـمّ علـى تكبّـر لـم أفهمـه:

- أتُقَدِّمُ لي في هذا الوقت قهوة وبلا سكّر أيضا؟

وقبـل أن أفسّـر لـه مسـألة نـدرة السـكّر هـذه الأيّـام بسـبب جشـع المحتكريـن الذيـن قامـوا بشـراء كل الكميـات المتوفّـرة وتخزينهـا فـي المخـازن البعيـدة عـن الأنظـار فـي انتظـار تحيّـن الفرصـة المناسـبة لبيعهـا، حدجنـي بنظـرة حاقـدة وقـال لـي:

- ألا تُقدّم لي كأس نبيذ؟ أشعر بالظمأ.

- فـي الحقيقـة لا نبيـذ لـديّ فـكل محـلاّت بيـع الخمـور مغلقـة بسـبب انتشـار الوبـاء الـذي نقاومـه بغلـق الفضـاءات التجارية والبقـاء فـي البيـت

نظـر إلـيّ باسـتغراب وهـو يقـرأ أفـكاري ويكتشـفُ كذبـي وقلّـة حيلتي ولا يـكاد يصـدّق أن مقاومـة الوبـاء تتـمّ بإقفال كلّ أبـواب الدولـة والبقاء فـي البيـت، وحيـن هممـت بسـؤاله عـن سـرّ ادمانـه وافلاسـه غـادر

دون أن يلقي عليّ التحيّة مُستمتعا بتركي أتعذّبُ في أسئلتي...

حين التفتُّ وجدتُ «كونفيشيوس» ينظر إليّ هادرا بصوت جهوريّ وكأنّه يرتّلُ «إذا كان الاسم غير صحيح، فلن تبدو الكلمات حقيقيّة». عن أيّ اسم يتحدّث؟ هل يكون اسم كورونا غير حقيقي؟ هل يكون كوفيد التاسع عشر اسما مزيّفا يخفي سيرة ذاتيّة أخرى؟ هل توجد ترجمة رسميّة لهذا الوباء؟ هل يقصد أنّني الترجمة غير المعتمدة لهذا الوباء؟ نعم! يمكنني أن أكون وباء لهذه «الروح التونسية» السائدة التي طَبَّعَتْ مع الفساد بطريقة تبعث على الاشمئزاز. ليس الفساد كتهمة أخلاقيّة وإنّما كتهمة قيميّة تأخذ معنى الانحطاط... إنّ المُنحَط هو ذلك النوع الذي يبجّل ما هو مضرّ بالإنسان وبالدولة من أجل غريزته، وقد بحثتُ في تونسيّ القرن الثامن عشر عن هذه الغريزة ووجدتُها الأكثر انتشارا وتستّرا، إنّها غريزة البقاء التي ظلّت لها نفس التجلّيات بعد ثلاثة قرون وبعد عقود من التمدّن والحضارة والثقافة... وهي نفس الغريزة التي كشّرت عن أنيابها إبّان الثورة وإلى اليوم حتّى أصبح الحديث عن الفساد هو العملة الأكثر تداولا على الاطلاق. إذ عندما يخلط شعب بين مصلحته الخاصّة والمفهوم العام للمصلحة فإنّه سيرى نفسه ماضيا نحو الهلاك. إنّ الغريزة التونسية التي انبنت منذ الصنهاجيين على أنّ الدولة هي البقرة التي يتوجّبُ حلبها كلّ دقيقة والحصول منها على أكبر قدر من الحليب دون التوقّف عن فعل ذلك حتّى وإن كان حلبها صار ينتج حليبا دمويّا أحمر، هي التي جعلت الناس يتجمهرون

بأعداد غفيرة اليوم في شكل مجموعات وطوابير أمام مراكز البريد للحصول على مائتي دينار وعَدَتْ بها الحكومةُ العائلات المعوزة حتّى تستطيع أن تجابه بها الظرف الاقتصادي الصعب الذي تسبّب به الوباء! وحتّى وإن كان هذا المبلغ زهيدا ولا يفي بأيّة حاجات أساسية أمام الغلاء الفاحش للأسعار، وحتّى وإن كانت المصالح الإدارية روّجت بشكل واسع أنّها سترسل ثمانين ارسالية لثمانين منتفع لكل مركز بريد من بين مراكز البريد الألف المنتشرة في البلاد، لتجنّب الاكتظاظ الذي يكون البيئة الملائمة للانتشار الواسع للعدوى، فإنّ ذلك لم يثن تلك «الروح التونسية المنحطّة» من أن تتكدّس في مراكز البريد بالآلاف حتّى وإن لم تكن معنيّة بهذه المنحة مُعَرِّضَةً حياتها وحياة كل سكّان البلاد إلى خطر الموت من أجل ستين أورو!!!

ولم يثن تلك «الروح الماكرة» أن ترفض قبول مصاب في مستشفى المدينة بتعلّة أنّه ينتمي لمدينة أخرى ولم يثنها أن ترفض دفن موتى كورونا في المقابر وهي ترغب في إلقاء الجثث في أسفل الوادي لتأكلها الكلاب والطيور الكاسرة ولم تُفكّر هذه الروح التونسية عديمة الفائدة أنّها بهذا الموقف المُقزّز والعنصريّ ستؤول إلى كتلة متراصفة من الجماجم المقليّة في زيت الكلمات غير المفهومة!

وأنا أفكّر في أمر «الروح التونسيّة» وضع «دون ريغوبرتو» يده على كتفي، حين التفتُّ ولمحته فرحتُ فرحا شديدا لأنّه-في رواية امتداح الخالة-لماريو بارغاس يوسّا عادة ما كان يحتفي بإقامته

في المنزل مع زوجته وابنه من أرملته. ولطالما تذكّرتُ طقوسه في البيت من تغيير ملابسه في غرفة النوم إلى اغتساله في الحمّام وحلق لحيته وقصّ أظافره بكلّ عناية وصولا إلى جلوسه في الصالون قريبا من المدفأة التقليديّة التي يقوم بتأجيج نيرانها بإلقاء الروايات الرديئة التي لم يجد طريقة للتخلّص منها سوى برميها فريسة للنيران. قال لي مبتسما:

- ما هذا الحزن البادي عليك بلحيتك المرسلة هذه والبيجاما التي قاربت على الجنون بسبب عجزها عن التفريق بين الليل والنهار؟

- أنت تعرف أكثر من أيّ شخص آخر ما الذي حدث.

- ولكن ذلك لا يدعو إلى هذا الحزن وهذه الحيرة! ألم تحلم طوال حياتك بالبقاء في البيت والتفرّغ للكتابة؟

- ولكنّني لا أستطيع ممارسة حتّى رياضة المشي التي أحبّذها.

- هل نفذ الظلام إلى ذكائك؟ إنّني أرى في ممارسة الرياضة شكلا من أشكال البلاهة التي تُقرّبُ الكائن البشري من الكبش ومن الإوز والنملة، وهي ثلاث درجات مهينة في مملكة الحيوان. إنّ الرياضات الوحيدة التي أستبعدها من منصّة التشهير هي رياضات الطاولة ورياضات الفراش (بما في ذلك الاستمناء بالطبع). أمّا الرياضات الأخرى

فقد حوّلتها الثقافة المعاصرة إلى عراقيل أمام انطلاق الروح والحساسيّة والمخيّلة والمتعة. ولكنّها تُعرقلُ أوّلا وقبل كلّ شيء الوعي والحريّة الفرديّة.

تركته يتحدّث وتسلّقتُ الكرسيّ بصعوبة بالغة وبحثتُ عن الريموت كونترول على طاولة فسيحة ضغطتُ بقدمي على زر تشغيل الشاشة لأشاهد آخر الاحصائيّات وهي تمسح دموعها وأتابع أرقام الذين أصيبوا بالعدوى وأرقام الذين ذهبوا ضحية هذا الفيروس اللعين (...).

- 13 -

السبت 04 أفريل 2020

ليس من شيء جديد اليوم سوى أنّ بشرة يديّ اخشوشنت من أثر ماء الجافال الرديء والصابون محلّي الصنع. فقد لاحظت ذلك عندما عدت إلى الشقّة بعد مغامرة الخروج للتسوّق معرّضا نفسي لخطر الإصابة برصاص الفيروس القنّاص دون أن يكون لي كمّامات واقية أو سلاح مضادّ، فقد سرتُ على غير هدى لا أدري ماذا أفعل في هذه الحياة الجديدة مذعورا كأنّني في ليلة حرب!

لقد مرّت أيّام طويلة على وجود الجيش في الشوارع ولكنّه لم يظفر بقتل أي فيروس أو بدحر أية مجموعة منه ودفعها للاستسلام، واستغربتُ من موقف نساء الحكومة ورجالها والقائد الأعلى للقوات المسلحة كيف يمكنهم أن يلقوا بجنودنا في ساحة المعركة لمقاتلة عدوّ غير مرئي أربك أعظم الجيوش في العالم؟

اجتاحتني خيالات مرعبة إذا لم يتمكن العلم من اكتشاف لقاح ضد هذا الشبح! سيتم القضاء على كل شيوخ العالم وكهوله نساء

ورجالا ولن يبقى سوى الأطفال الذين لا يتجاوز عمر أكبرهم الخمسة عشر سنة:

تناقلت الألسن خبرا مفاده أنّ الفيروس سيدرك جميع سكان الأرض الذين تجاوز سنهم الخمسة عشر عاما. إذ أصيب جميع الناس بهذا الفيروس الغامض وسرت شائعات كثيرة من بينها أنّ الفيروس ليس سوى شيطان ينقسم عبر مرور الدقائق والساعات إلى شياطين تتلبس بالأجساد! وقيل أيضا إنّ حيوانا أليفا -تؤكّد جلّ التقارير أنه قط بومباي-أصاب سائحة شقراء ذات نهدين مكتنزين بعين الحسد لدى مرورها في ووهان بجواره. وقطّ بومباي من السلالات الحديثة ويتميّز بلونه الأسود وحجمه المتوسّط وعينيه المستديرة والصفراء ورأسه الكرويّ بالإضافة إلى ذكائه الحادّ وهو ما جعل تلك المرأة تصيب كلّ من نظر إليها نظرة اعجاب ترتقي إلى الحسد وأصبح كلّ مصاب جديد يصيب بالعدوى أيضا كلّ من نظر إليه حتّى انتشرت العدوى بطريقة استحالت السيطرة عليها... كان فضول الناس في بقيّة القارّات مهتاجا جدا وتكاثرت الأقاويل دون أن يستطيع علماء الفيروسات والأطبّاء تفكيك لغز هذا المرض وتكاثر عدد الموتى جرّاء هذا الفيروس. وللحد من انتشاره قرّر الأطبّاء أن تتمّ عملية دفن الجثث تبعا لبروتوكول دقيق يتمثّل في حفر قبور عميقة وإلقاء الجثث فيها دون مراسم دفن بلا صلاة جنازة ولا قدّاس ودون حضور أيّا من المعزّين بل إنّ المصالح البلديّة هي التي تتكفّل بذلك مُكفِّنة الموتى بركام الجير وتسابيح الذهول. إذ تقوم بنقل الموتى في

عربات جنائزية من المستشفيات إلى المقابر. وقد كانت العربات شبيهة تماما بتلك التي كانت تجرّها الأحمرة والتي كانت تحمل أكياس القمح أو صناديق الخضر إلى السوق، عربات مطليّة باللون الأسود وبعجلات مترهّلة هي نفس العربات التي تجرّها الأحمرة، عربات أصبحت تنقل الجثث بين المستشفيات والمقابر طوال الليل والنهار وبلا توقف. إذ تعوّدت الأحمرة على الطريق وعلى القيام بنفس العمل لذلك لم تكن هذه العربات محتاجة إلى سوّاق وهو ما حوّل في وقت من الأوقات حركة عربات الموت إلى الحركة الوحيدة في الشوارع بعد أن قضى غالبية سكان العالم الذين تجاوزت أعمارهم الخمسة عشر سنة... وعندما أدرك علماء الأوبئة وعلماء الفيزياء والكيمياء والرياضيّات والطب أنّ الأمر سينتهي بموت كلّ سكّان الأرض من غير الأطفال طلبوا من كل قادة العالم إعداد حُفر عميقة بما يكفي لدفن أكثر من ثلاثة مليارات نسمة! بدا الأمر في البداية شبيها بمزحة ولكن عندما تصدّى حكماء العالم وفلاسفته ومتديّنوه إلى الأمر الجلل وأدركوا أن النهاية حانت حفّزوا جميع الدول للقيام بكل ما يلزم لإنقاذ جيل آخر سيعمّر الأرض. وقد غيّرت منظمة الأمم المتحدة كل آليّاتها في وقت قياسي من أجل تنفيذ المهمة التي كانت ستكون مستحيلة لو لم يتفتّق ذهن شعراء العالم على فكرة مثيرة بالرغم ما تنطوي عليه من حزن: يجب على كل شخص سيدركه الموت لامحالة بعد أربعة عشر يوما جرّاء الفيروس أن ينهض مثل صانع معجزات عازم على تأثيث يومه بحفر قبر في شكل

أسطوانة قطرها متر واحد وعمقها ثلاثة أمتار في المكان الذي يرتئيه ويتم وضع التراب في وعاء شبيه بعربة ويكون مشدودا بحبل يتدلى في الحفرة. وعندما ينتهي الحفّار من اعداد العدة يرمي بجسده في تلك الحفرة ممسكا بالحبل وجرّاء قوّة الهبوط ينقلب الوعاء فيهيل التراب في القبر وبذلك تكون عمليّة الذفن ذاتيّة..

وكانت آخر الجثث التي لم تتمكن من الموت في قبورها هي التي كان يقوم المخبولون والمجانين بدفنها ما سيجعل الانسانيّة مدينة في معظمها إلى هذه الفصيلة التي استرجعت في لحظة تاريخية حاسمة شعورا غريزيّا قامت بتنفيذه بنفس الاتقان الذي قامت به الأحمرة...

***

نهض مجد من النوم مرهقا بعد أن قضّى يوم أمس في نقل الكراتن إلى داخل مغازة الحيّ، كراتن البضائع التي جلبها بقيّة الأطفال من مصانع الإنتاج التي يشرف عليها أيضا أطفال لا يتجاوز سنّ أكبرهم تسعة عشر عاما.

كانت أخته مايا البالغة عشر سنوات تنتظر فطور الصباح عندما ناداها مجد بصوت مخشوشن على غير العادة وبدا لها صوته أكبر بكثير من الثلاث عشرة سنة التي بلغها منذ شهر. مرّت خمس سنوات منذ أن قضى كوفيد التاسع عشر على أبويهما وعلى جموع البشر في العالم ولم ينج إلا الأطفال الذين لم

يتجاوز سنّهم الخمسة عشر سنة قبل أن يختفي الفيروس بشكل غامض وتختفي معه غالبية سكان الأرض...

لم يبق في الحي الذي يسكنان فيه في الضاحية الغربية لتونس العاصمة سوى قلة قليلة جدّا من السكان الأطفال الذين كابدوا خلال السنوات الماضية ليواصل عدد قليل منهم الحياة بعد أن قضى أغلبهم بسبب الجوع والعطش والأمراض! وتلك القلّة القليلة نجت بفعل خبرة بعض الأطفال الذين كان يتمّ تشغيلهم في افريقيا والصين وحتّى في تونس خلافا للقوانين القديمة التي كانت تحجّر تشغيلهم قبل طوفان كورونا الذي أودى بغالبيّة سكّان الكوكب. وهو ما جعل بقيّة أطفال العالم يمتلكون خبرات استثنائيّة ويطوّرون خبرات جديدة جرّاء الإرث الذي تركه لهم الأسلاف.

«عليّ أن أعدّ نفسي لحضور الاحتفال» هكذا قال مجد في نفسه وهو ينتفض من فراشه مُسرعا.

احتفاءً ببلوغ أوّل جيل من الانسانيّة سن العشرين تمّ إعداد برنامج لا سابق له من الاحتفالات العامّة. تجمهر نصف سكّان العاصمة على شاطئ البحر الذي استعاد هيبته وجماله منذ سنتين حتّى أنّ الأطفال كانوا يسبحون جنبا إلى جنب مع الدلافين التي كانت تتراقص في الشاطئ الذي كان يُسمّى سابقا «حلق الوادي» وبدأوا في ترديد النشيد الوطني الذي لا يدري مجد كيف تسرّبتْ له عدّة تحويرات نتيجة أخطاء

النطـق التـي دأب عليهـا الأطفـال فـي الأشـهر الأولـى للمأسـاة الكونيّـة حتّـى أصبحـت تلـك الأخطـاء جـزءا شـائعا مـن النشـيد الرسـمي الـذي أصبـح يـروي قصـص القطـط والـكلاب والأحمرة التـي سـاعدت الأطفـال علـى النجـاة مـن المأسـاة المحتومـة.

كانـت مايـا تبحـث تائهـة وسـط الجمهـور السـاذج عـن مجـد لتخبـره أنّ هـذا اليـوم يصـادف عيـد ميـلاده وعلـى الرغـم مـن كل الحسـابات التـي قامـا بهـا مـن خـلال محاولـة مطابقـة بطاقـة ميـلاده التـي عثـر عليهـا فـي إحـدى مكاتـب الإدارات المهجـورة صدفـة، فـإنّ ذلـك اليـوم يصـادف عيـد ميـلاده!

عندمـا دقّـت سـاعة الصفـر مـن خـلال النفـخ فـي بـوق معدنـي، بـدأ أوّل منطـاد فـي التحليـق عاليـا وقـد ركبـه بعـض الأطفـال المتدرّبيـن وهـم يتصايحـون فرحـا وبجانبهـم فتـاة وفتـى بلغـا سـن العشـرين مـن ممثّلـي جيـل العشـرينات... حلّقـوا فـوق ظـلال مـزارع القمـح التـي تبـدأ خلـف الشـاطئ ولا تنتهـي فـي مـا كان يسـمّى سـابقا شـارع الحبيـب بورقيبـة ثـمّ حلّقـوا فـوق بحيـرة السـيجومي التـي بـدت لهـم بيضـاء نتيجـة الأعـداد الهائلـة والتـي لا حصـر لهـا لطيـور النـوارس، ليهبطـوا دون أيّ حـادث فـي أرض منبسـطة فـي قريـة العقبـة الزاهـرة وقـد اسـتقبلتهم تلميـذات المـدارس الابتدائيّـة وهـنّ فـي هيئـة ملـكات جمـال مزيّنـات بأزهـار طبيعيّـة متفتّحـة وتيجـان مصنوعـة مـن خنافـس مذهّبـة وقـد جـيء بهـم مـن كل المناطـق علـى ظهـور البغـال (...).

انتفضتُ في مكاني وأنا أطرد من ذهني هذه الخيالات المرعبة وألتقط جهاز التحكّم في التلفاز لأبحث عن محطّات الأخبار لعلّ علماء البيولوجيا تقدّموا خطوة أخرى في اكتشاف هذا الفيروس الغامض وطرق مواجهته عبر صنع الدواء المناسب والتلاقيح المضادّة!

- 14 -

الأحد 05 أفريل 2020

«العصر بنفسه يقتلني

معزولا

في هذا المأزق المحكم

أضمّ ذراعيَّ دائما صوب قلبي

مثل عصفور مطعون

أنا عنصرٌ من رماد

بلا بكاء

بلا حديث كبار»

هكـذا كتـب الشـاعر الإيطالـي المعاصـر «**ميكيلـي كاكامـو**» سـنة 2012 لكأنّـه يتحـدّث عـن إيطاليـا سـنة 2020 ومـا جـرى لأهلهـا وهو يتوقّـع الأشـياء التـي حطّـت بعيـدًا فـوق سـطح مـن جليـد العواطـف الانسـانيّة التـي كشـف انتشـار فيـروس كورونـا بشـاعتها.

لا أدري ما حدث لشاعرات إيطاليا وشعرائها!

لا أدري ما الذي حدث لابن مدينة ميلانو «**أنطونيو ريكاردي**» الذي يتنبأ منذ 2004 بما سيحلّ بمدينته في قصيدة البركان والفريسة من ديوانه «الربح الملحي» إذ يرى أنّ غطاء من الرماد يحلّ بالمدينة بينما صيده كان في بيته بالغابة «ولكن ذات صباح/ ونحن مستلقين على عشب ذهبي معتم/ تهادى إلى مسامعنا حفيف كئيب/ أو ربّما شكوى، أو شيء مشابه في أقصى عمق الغابة/ نسمعه كما كان يأتي من مكان مغلق/ شيء ما في قاع يتبدّد/ وإذا لم نعرف معلما للشواطئ والدروب/ نندفع، ولكن لا نعرف أين سمعنا الغابة تحترق...

وما الذي حلّ بابنة جامعة ميلانو الشاعرة «**باولا لوريتو**» هل مازالت على قيد الحياة هل هي مثلي في الحجر الصحّي وتتقاسم مع العالم ألمه؟ هل أدركت توازنها الصعب؟ لا شكّ أنّها لم تدرك أبدا هل تتجه يمينا أم يسارا أم تتجه أماما؟ لا أحد في زمن الوباء في متاهتها يُرشدها. تنظر إلى الأب الذي ينسلّ عاليا نحو المركز لا شكّ أنّه غادرها والابن الخامل أتراه هو الطريق الصحيح؟ الشارع يقلّ زِحامه ببطء، ناعمٌ ومبهور وهي تريد أن تجتازه كلّه، تريد اليوم بطول نهاره المبتدئ وهي تبحث عن التوازن الصعب...

أيتها الشاعرة ثمّة جمال في الذهاب يكفي أن تجديه!

و«**إدواردو تزوكاتـو**» مـاذا تـراه يفعـل فـي ميلانـو الجريحـة؟ إذ لا توجـد سـاعة أفضـل مـن الأخـرى فالسـاعات كلّهـا طيبـة عندمـا نسـتيقظ مـن نعـاس أسـود أو عندمـا نرفـع رؤوسـنا مـن بيـن ثنايـا أعشـاب الظـل مـن الوحـل والعفـن حيـث يبـدو العالـم وقـد أبـى إلاّ أن يزدهـر هنـاك حيـث الأمـور ليسـت عادلـة!

آه لـو توخّيـتَ العـزاء ذات مـرّة يـا إدواردو قبـل سـنوات طويلـة ربّمـا قبـل عقـد مـن الزمـان علّنـا لا نكـون مجبريـن علـى أن نـردّد فيمـا بيننـا أنّ الكمـد هـو أن نعـرف أنّـه لا يوجـد مـا هـو جديـر بتنظيـف الشـوارع مـن بقـع الجثـث، ونجـد أنّـه عندمـا نمـلأ الفـراغ يبقـى الألـم فحسـب، الـذي لا يريـد أن يـرى بـل ويُغـرق العيـن فـي البـكاء...

يـا شـعراء رومـا! يـا أدبـاء... يـا شـعب جارتنـا مـن قديـم الزمـان، لـم تعـد الحـرب فيمـا بيننـا هـي التـي تربطنـا! لـم تعـد هجرتنـا السـرية هـي عائقنـا... إنّنـي أبكـي وأنـا أرى شـعب رومـا القديمـة يمـوت فـي عزلتـه ولا أحـدٌ يمـدّ يـده للإنقـاذ.. أيـن كلاب الليـل الأوروبّـي أيـن إخـاء الاتحـاد الـذي ظللنـا ننظـر لـه علـى أنّـه معجزتنـا: قـارة بأكملهـا بأعراقهـا المتنوّعـة وديانـاتهـا المختلفـة ولغاتهـا المتعـدّدة تتوحّـد فـي مـا يشـبه دولـة واحـدة بـلا حـدود ونحـن بـكلّ مـا يجمـع بيننـا مـن وحـدة التاريـخ ووحـدة الجغرافيـا ووحـدة اللغـة ووحـدة الديـن ووحـدة المصيـر المشـترك فـي أمّـة واحـدة مازلنـا نتجـزّأ ونتفتّـتُ إلـى دول ودويـلات وإمـارات وولايـات وأقاليـم متحاربـة ومتصارعـة باسـم الشـيطان المسـكين الـذي قسـموا ظهـره وأرهقـوا قلبـه بسـبب العـبء الثقيـل الـذي ينـوء بحملـه!

وكيف حال **باتريتسيا فالدوجا** وهي تواجه الوباء برباعيّاتها وتصرخ: «أحتاج إلى الكلمات، ينبغي أن تتعلم أن تحبّني بطريقتي. إنّه العقل المجنون الذي يريد هذا: تكلّم أرجوك! تكلّم أيّها الإله»!

ولكن لم يُكلّم شعراء إيطاليا لا الإله ولا الإنسان. فقد بدا من خلال الأخبار التي تتواتر أنّ الشعب الإيطالي ظلّ لأسابيع في صحراء خرساء يواجه محنته بمفرده وظلّ يشيّع يوميّا مئات الجثامين ويلقي بها في حفر عميقة قرب الليل مثل ذاكرة مضاءة تلمعُ العظامُ في اللّيلِ، وهذه الكلماتُ ألقيها كأحجارٍ لتشجّ ضمير الانسانيّة المتعب، ضمير متحجّر يطوف فيه ظلّ واهنٌ يرثي جنازات لا يمكنُ عدّها وقد بدت الانسانيّة مثل قطيع من الثيران التي يتربّص بها السبع وكلّما اصطاد ثورا التفت القطيع نصف التفاتة ولم يجد حيّزا لرثاء نفسه وهو ينظر إلى قيود قاسية تلتفّ حول أعناقه مثل سكاكين ترقص وترثي جنازات كثيرة تكبر وحيدة في الليل الشاحب وأرثي نَفْسي في جنازاتي الكثيرةِ.

- 15 -

الاثنين 06 أفريل 2020

أشعر اليوم بالإرهاق والقلق ربّما بسبب الأرق الذي لازمني خلال الأيّام الماضية وربّما بسبب ألم طفيف في الحنجرة وانسداد في الأنف لم أعرف مأتاه، شعرتُ بالرعب حين تصوّرتُ أنّ هذه الأعراض هي أعراض فيروس كورونا ليس بسبب الخوف من المرض وآثاره ولكن بسبب كيفية تعامل مصالح الصحّة معي. وما زاد قلقي أنّني لم أتوصّل إلى معرفة ما الذي أفضّله فيما لو أتيح لي الاختيار. بدت لي الحقيقة لا تطاق وبدا لي عدم وجود أحد يجيب على نداءاتي المتكرّرة على الرقم 190 أمرا غير قابل للتصديق. لا أحد يعرف شيئا في هذه المدينة القرويّة ولا أحد يستطيع تقديم إجابة عن اختفاء الفيروس في مكان ما وظهوره في مكان آخر. أثناء التحرّيات المتعدّدة التي قام بها الأطبّاء وعلماء الفيروسات عرفنا أخبارا كنّا نجهلها أو لم نكن نسعى لمعرفتها، من بينها موت الفيروس خلال لحظات قليلة عندما ترتفع حرارة الطقس لأكثر من 28 درجة، أو سرّ انتقاله في الهواء وامكانيّة تسلّله من النوافذ وفرجات الأبواب والوصول

إلـى اختـراق جسـم الانسـان وهـو مـا جعـل العالـم يسـتعدّ ليصبـح «عالمـا مكمّـم الأفـواه»! هـل سـيتخلّى العالـم عـن حريّـة التعبيـر مـن أجـل حمايـة نفسـه مـن فيـروس قاتـل؟ أصبحـتُ أتخيّـل نفسـي وأنـا أرتـدي كمّامـة وأجلـس فـي مقهـى وأخاطـب حبيبتـي بكلمـات معطوبـة وهـي تخـرج مـن فمـي لتصطـدم بجـدار الواقـي وتعـود أدراجهـا وأتخيّـل كيـف أمسـك يدهـا التـي تحمـل مثـل يـدي قفّـازات بلاسـتيكية فـي حركـة رومنسـية وأحـاول تقبيلهـا فأجدنـي أقبّـل قطعـة القمـاش التـي تشـكّل حاجـزا بينـي وبيـن شـفتيها! ولكـن ذلـك ليـس أكثـر رعبـا مـن ألاّ يُسـمح لنـا بالتنقّـل داخـل البيـت بيـن الغـرف أو بيـن الغرفـة والمطبـخ أو بيـن الغرفـة والحمّـام! إنّ مشـهد الجثـث المغتبطـة فـي عربـة الموتـى وهـي لا تعثـر علـى مقبـرة مناسـبة لتُدفـن فيهـا يصيبنـي بقشـعريرة نظيفـة قبـل أن تسـمع نـداء موحشـا يأتـي مـن عذابـات الأزمنـة الغابـرة، يعبّـر عـن فرحـة الانتصـار والانتقـام مـن الأجيـال التاليـة التـي دمّـرت الكـون برغبـة فـي اسـتهلاك كل شـيء واسـتنفاذ كل طاقاتـه... تلـك هـي لوحـة الهاويـة التـي ترعـب «كائنـات بـلا أرواح» مـن شـأنها أن تعـدم الدفعـة الثالثـة مـن حياتهـا فـي العالـم الآخـر!

دقّ جـرس البـاب بعـد منتصـف الليـل دقّـات مرعبـة لـم تتوقّـف حتّـى عندمـا قفـزتُ مـن كنبتـي التـي أنـام عليهـا فـي الصالـون وعلـى ضـوء جهـاز التلفـزة بحثـتُ عمّـا ألبسـه فـي حذائـي وتوجّهـتُ إلـى البـاب مرتعشـا بسـبب عـدم توقّـف الجـرس عـن الرنيـن... حيـن فتحـتُ البـاب وجـدت أمامـي ثلاثـة أشـخاص بملامـح كانـت أصعـب ممّـا يمكـن لـي

أن أتخيّله في كابوس! كانوا بملابس غوص بيضاء وبالكاد تظهر ملامحهم من تحت خوذاتهم وأغطية رؤوسهم وقوارير الأكسيجين التي يحملونها على ظهورهم... كانوا يتحرّكون وكأنّهم في أعماق البحر، تحدّثوا فيما بينهم بالإشارة ثمّ تحدّث أحدهم معي وكان صوته مختلطا بصوت زفير تنفّسه في الماء: «هل أنت من اتّصل بالرقم 190»؟ فأجبتُ دون أن أكون متأكّدا من أنّهم لن يتخلّوا عن مخطّطهم بإسقاطي في شركهم، وقبل أن تستيقظ زوجتي وطفلاي سحبوني بملابس النوم إلى الباب! في تلك اللحظة التي كانت فيها خيالات شتّى تضفي الجديّة على المشهد، فهمتُ أنّه عليّ أن أقاوم بكلّ ما أوتيت من قوّة، إلاّ أنّ طريقتهم التي تنمّ على تدريب عالي الدقّة جعلتني أفقد كلّ وسائل المقاومة. فقد تمّ تكتيفي بأطرافي ذاتها إذ قاموا بربط ذراعيّ ببعضهما بطريقة متشابكة لم تسمح لي بفصلهما عن بعضهما معتمدين على ما توفّره مفاصل الكتف والمرفق واليد من إمكانيّات لم أكن أعرفها وقاموا بنفس الشيء مع ساقيّ حتّى صرتُ وكأنّي ميّتٌ في كفنٍ غير مرئي وفي اللحظة التي فكّرتُ فيها بالصراخ كانوا قد وضعوا لاصقا على فمي... حملني اثنان منهما في حين ظلّ الثالث يمسك زوجتي وابنيّ ليمنع اختلاطهم بي قبل أن يُركبوني في سيارة الإسعاف ويمضوا بي... في الطريق الليلي الموحش لم أسمع حركة هؤلاء الثلاثة ورأيتهم ينظرون إليّ ويتحدّثون فيما بينهم بالإشارة وكانت صورتي منعكسة على سقف سيارة الإسعاف وبدت لي كأنّها منعكسة على صفحة ماء

مقلوبة. لم يربكني المشهد بقدر ما أربكتني هيئة الممرّضين الأشبه بغوّاصين وأربكني عجزي عن الحركة بسبب قيودي الذاتيّة التي لم أتمكّن من التحرّر منها. وكانت أضواء الشارع تتلألأ وقد نفذت رقصاتها السريعة من فرجة إحدى نوافذ السيّارة البلوريّة وكانت تبزغ من بين أضوائها لمعات مثل بروق تحت إبط السماء.

حين وصلنا إلى مستشفى «شارل نيكول» أنزلوني ومدّدوني على كراسي زرقاء مرهقة في بهو قسم الاستعجالي ونزعوا عن فمي اللاصق الذي كان يمنعني من الصراخ وذهبوا دون أن يلتفتوا إليّ مجرّد التفاتة... بعد برهة جاء غوّاصون آخرون وضع أحدهم جهاز التنفّس في فمي وأخذ آخر عيّنة من دمي وجلس غوّاص ثالث على الماء وحثّني على الاقتراب والمحافظة على الهدوء... في تلك اللحظة أحسستُ أنّ حالة الشلل التي تسبّب لي فيها الرجال الثلاثة الذين اقتحموا بيتي وجاؤوا بي إلى هنا بدأت تنقشع شيئا فشيئا وبدأتُ أستعيد حركتي العاديّة... تركني الغوّاصون الجدد وذهبوا في حال سبيلهم وبقيت أنا ألتفتُ حولي وبدا لي المستشفى شبيه بمعتقل به عديد المرضى الصامتين والذين لا يثيرهم الفضول حتّى للنظر إلى هيئتي. إذ انتبهتُ أنّني بسبب حرارة البيت نمت عاريا وقد اختطفتني سيّارة الإسعاف ولم تترك لي فرصة ارتداء ملابسي.. شعرت بالخجل من نفسي ومن إمكانية أن تراني على هذه الحالة الطبيبة السمراء التي كنت أتابعها بشكل يومي في التلفزة وهي تقدّم لنا النصائح المفيدة في

مواجهة فيروس كورونا. إذ أخذتُ وعدا على نفسي أن أحمل لها باقة ورد بعد انتهاء الوباء إلى مكتبها، ليس من أجل أن أشكرها على ما قدّمته فحسب، وإنّما عربون صداقة وطريقة مداورة لأعرب لها عن رغبتي في التعرّف إليها ودعوتها إلى شرب قهوة... عضضتُ على شفتي بسبب مظهري المخجل وقد كانت عضّةً قويّة جعلتني أستيقظ من كابوسي لأجدني نائما في البيت أمام التلفاز المعدّل على قناة «ناشيونال جيوغرافيك» التي كانت تبثّ برنامجا عن أسرار الكائنات البحريّة في أعماق البحار وكان الصوت المرتفع يتغيّر بين نبرة المعلّق ونبرة الغوّاص المستكشف غير المكترث بتحوّله من ممرّض في كابوسي إلى رجل آخر يتحدّث بشغف مادّا عنقه نحو الأفق ليرعى بعينيه اللامعتين قطيعا من الماعز البحري!

- 16 -

الثلاثاء 07 أفريل 2020

استيقظتُ هذا الصباح ودون سابق إنذار وجدتني متصالحا مع فيروس كوفيد التاسع عشر. بدا لي كأنّه المسيح الذي جاء لتخليص العالم من الشرور التي انتشرت فيه وذلك لخدمة الضعفاء ليس بالمعنى الفيزيولوجي أو القيمي ولكن بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي وحتّى بالمعنى السياسي. إنّ هذا الفيروس يحلّ بيننا في شكل صدفة سعيدة إذ لا يُخشى وجوده بالنسبة للأجدر في الحياة ولكن من منطلق الخوف أصبح نقيضه هو النوع المرغوب فيه!

لقد أثبت فيروس كورونا المستجد أنّ القوى العظمى هي مجرّد فكرة بل وفكرة خاطئة أيضا باعتبار أنّ هذه القوى العظمى التي قهرت شعوب العالم من الفقراء والمستضعفين ورغم ترساناتها العسكرية والنوويّة ورغم صناعاتها الأكثر تطوّرا ورغم هندساتها الالكترونيّة الأكثر دقّة ورغم علومها الطبية والبيولوجيّة والكيميائيّة الأكثر ذكاء، فقد وقفت عاجزة أمام هذا الفيروس الشبح. ولعلّ من مهازل التاريخ أن تستعين الولايات

المتحدة الأمريكية بالجيش لمحاربة كوفيد التاسع عشر الذي انتصر عليها بقتل أربعة عشر ألفا من أبنائها إلى حد هذه الساعة في هذا اليوم!

إنّ المسيح الجديد الذي يظهر اليوم مؤكّدا أنّنا في آخر الزمان، يخوض حربا نيابة عن الشعراء ضد ذلك النوع السافل من الكائنات وهو «انسان الكائن» ونابذا كل الغرائز الأساسية لهذا النّوع المنفّر، منحازا لكلّ الضعفاء والمتواضعين والذين لهم رغبة في النجاح لم تتحقّق، إنّه يخوض حربا من أجل تطهير الانسانيّة من الخطايا والآثام والضّلالات...

لقد رفع هذا الفيروس/المسيح الستار عن فساد الانسانيّة وكشف عن القذارة التي تردّت فيها القيم حتّى أصبح الانحطاط هو القيمة السائدة... إنّ العدوانيّة والأنانيّة والعصبيّة، والجهويّة، والعنصريّة، واحتقار الآخرين والوحشيّة وكل مظاهر اللاإنسانيّة هي غرائز دفينة في الإنسان تعود للظهور كلّما أمكن لها ذلك.

وقد بدا لي أنّ فيروس كورونا جاء مُشفقا على الانسانيّة ومُطهّرا لها. ولكنّه في الآن ذاته قد اعتدى على الحريات الفرديّة التي نُمجّدها، فبهِ أغلِقَتْ الملاهي بؤرة سعادة الزمن الراهن أين تختلط العلاقات وتنتشر الدعارة واللواط والسحاق وتتفشّى الجريمة واستهلاك المخدّرات والادمان على الكحول... وبِهِ عاد الناسُ إلى البيت ليقيموا فيه مرغمين ويستعيدوا ما يُسمّى «بالوئام الأسري» مرغمين، بعد مل يدعوه المحافظون «بالانحلال

العائلي والخيانات الزوجيّة» التي سادت لعقود طويلة وهو بذلك مثّل لدى هؤلاء أداة أساسيّة لحفظ الحياة التقليدية وإنماء قيمتها عبر العودة للمسيح والتأمّل في الخلق قبل الفناء أو بالأحرى قبل يوم القيامة!

ولقد جاء كوفيد التاسع عشر مُشفقا على الطبيعة وعلى البيئة، لذلك بحركة إعجازيّة أغلق كل المصانع الكبرى التي تتسبّب في تلوّث المحيط وأوقف المواصلات وأغلق كل المطارات في كافّة دول العالم وأوقف غالبيّة السيارات ليتراجع استهلاك الطاقة بشكل كبير جدّا ممّا جعل منسوب الأكسيجين يرتفع والعالم يتنفّس هواء نظيفا لم ينعم بمثله منذ قرون.

وبسبب جشع رأس المال المالي النّهِم الذي لم تستطع أية قوّة أن تنتصر عليه لأنّه دائم الاستعداد لافتراس الآخرين دائسا على كل القيم التي تقف في طريق صعوده ونجاحه، فقد أغلق المسيح البورصات العالميّة وزلزل كبرى الشركات العابرة للقارات وبدأ يتحوّل شيئا فشيئا إلى القوّة الحيويّة الأساسيّة والمرشد للثورة الانسانيّة الأكثر عمقا إلى حدّ الآن والتي تحمل على عاتقها تحرير الانسان من استغلال الانسان. إنّ التناقض الذي شرع في البروز خلال الأيّام الأخيرة بين رغبة رأس المال الذي يريد أن يستأنف استغلال قوى الإنتاج بفظاعة فائقة واستنزاف المقدّرات الطبيعية بحقارة الحدود القصوى وبين الرغبة في حماية الانسان والطبيعة وبيئتها من أجل التصدّي لانتشار الفيروس، هو الذي سيشكّل العصب الداخلي للسيرورة التاريخيّة. إلاّ أنّ هذا

التناقض غير المنسجم وصعب التقويم سيتّخذ شيئا فشيئا نسقا تصاعديّا وسيوفّر ظروفا مناسبة للسيد كوفيد التاسع عشر عليه السلام لإلغاء الفوضى والأزمات والاجهاز على الوجه الشرس «للعولميّة» وقد شرع في انهاء الحروب والاعتداءات على الشعوب المستضعفة مُجبرا حاملات الطائرات على الرجوع إلى قواعدها وفارضا هدنة على الجميع. وشرع من جهة أخرى في الضغط على القوى الامبرياليّة وممثّليها من المؤسسات الماليّة العالمية على إلغاء الديون التي أغرقت بها الدول الفقيرة وجعلت شعوب تلك الدول ترزح تحت نير الفقر والاضطهاد.

وجعَلَنَا هذا المسيح نعيد النظر في كلّ ما تعلّمناه بإغلاق المدارس والمعاهد والجامعات تلك المؤسّسات التي ظلّت تحشو رؤوس الناشئة منذ آلاف السنين بأخلاق العبادة! عبادة المادّة وعبادة الربح وعبادة التفوّق وعبادة الغطرسة: عبادة الدنيا وعبادة ما وراء الدنيا في رغبة لا تضاهيها رغبة أي كائن في اجتياح المطلق وتدمير بنية الكون وانسجامه! ...لقد جعلنا الوباء صلى الله عليه وسلّم نغدو أكثر تواضعا ونعود إلى موقعنا بين بقية الحيوانات والكائنات وجعلنا نعود إلى ذواتنا في وقفة تأمّل جماعيّة وطويلة جدّا وأعاد أسلوب حياتنا إلى ما قبل الحداثة لنطهو خبزنا على الحطب ونتنقّل على الدواب ونبحر في المراكب الشراعيّة وننسج أقمشتنا بالمنسج اليدوي...

وعوض أن نحمّل أنفسنا المسؤوليّة فإنّنا نحمّل الآخرين (حتى وان كانت القوى الماورائية) مسؤوليّة وضعنا وتبعات أدنى

توعّك يصيبنا وإن كان مجرّد أنفلونزا موسميّة ليجعلنا ذلك نطوّر تجارتنا بالدين ونشرع في إدانة كلّ رؤية عقلانيّة وكلّ حريّة شخصيّة ليصبح انتشار الوباء عقابا إلاهيّا نتيجة ابتعادنا عن التعاليم الدينيّة ومحاربتنا لممثلي الله في الدولة، وقد أدّى اقصاؤها من إدارة الشأن العام إلى تسليط أقصى العقوبات على الانسانيّة، إلاّ أنّ «المسيح الجديد» أمر بإغلاق جميع دور التجارة بالأديان! لقد كانت هذه الدور في كلّ أمّة حريصة على تخدير الجموع من جهة، وعلى خدمة رجال السلطة وتبرير حكمهم من جهة أخرى، مُحفّزة طموحات هؤلاء ومُتيحة لهم سيطرة واسعة باسم شعب مستكين إلى قدره ومُقرّة لفائدتهم غلبة افتراضيّة... وها هي اليوم أقدم أحلام الثوّار تبدو ممكنة بالإجهاز على أعتى مؤسسة تجاريّة بأحلام الفقراء والمستضعفين، مؤسّسة لطالما زيّفت الوعي وبشّرت البؤساء بالقبول بقدرهم من أجل الجنّة الموعودة في السماء بل إنّها باعت على مرّ العصور صكوك الغفران من أجل الحصول على مقعد في الفردوس الموعود حتّى إنّ أحد ممثّلي حركة النهضة في جندوبة قبيل انتخابات سنة 2011 زار أبي المتقاعد في البيت، أبي الذي فرّ من ملاحقة جندرمة الاستعمار في القيروان إثر الأحداث التي جدّت نتيجة اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد ليتخفّى في جندوبة باسم مستعار ويعمل لأكثر من ثلاثة عقود في أكبر مصنع للنجارة في الشمال الغربي، ولم يكن معروفا عليه ممارسة الشعائر الدينيّة والحضور إلى المساجد يوم الجمعة ولم يكن منخرطا في أي

حـزب أو مؤسّسـة لإنتـاج النفـاق الاجتماعـي والمتاجـرة فيـه قائـلا لـه «إن كنـتَ تريـدُ أن تضمـن مقعـدا مُريحـا فـي جنّـة الخُلـد فعليـكَ بالتصويـت لحركـة النهضـة»!!! خـلال السـنوات التـي تلـت تلـك الانتخابـات كان أبـي يحتقـر الحُـكّام الجـدد قـدر احتقـاره لزمـن بـن علـي دون أن يفهـم أحـد مـن أفـراد العائلـة سببا لذلـك وأوعـزه بعـض اخوتـي إلـى أنّـه ظـلّ دائمـا معارضـا فوضويّـا لـكلّ سـلطة مهمـا كان مأتاهـا منـذ الاسـتعمار وحتّـى زمننـا الحاضـر، إلـى اليـوم الـذي روت فيـه لـي أمّـي حادثـة الحملـة الانتخابيـة.

لقـد منـح هـذا الامبراطـور العظيـم الحريّـة للحيوانـات في البـرّ والبحر وفـي السـماء فأصبحـت قطعـان الغـزلان النـادرة والتـي قاربـت علـى الانقـراض تنتقـل مـن الصحـراء التونسـية إلـى صحـارى مـا بعـد مالـي دون أن يصيبهـا أذى الصيّاديـن وخرجـت قطعـان الخنازيـر مـن الغابـات المجـاورة لتجـوب أحيـاء المنـزه السـادس وحـي النصـر وتدخـل إلـى المغـازات بحثـا عـن المعلّبـات التـي سـتعدّ بهـا غداءهـا وعـاد الحـوت إلـى الميـاه المنخفضـة لينعـم بمـا يتّصـل بالبحـر مـن أشـعّة الشـمس وتكاثـر الحجـل بأضعـاف مضاعفـة خـلال هـذا الربيع!

- 17 -

الأربعاء 08 أفريل 2020

كان عدد المصابين بالفيروس اليوم حسب اعلان وزارة الصحّة خمسة أشخاص فحسب مع تسجيل حالة وفاة واحدة!

إنّه أمرٌ يبعث على الاستغراب خصوصا في خضمّ الحديث عن تطوير الفيروس لذاته إذ لم يعد يعلن عن وجوده في الجسد عن طريق التحاليل مهما كان نوعها وإنّما ينام ويستهدف الانسان إلى أن يموت فجأة بسكتة قلبية!

ومن جهة أخرى بدا الحديث في وسائل الاعلام عن ضرورة التأقلم مع الحياة الجديدة بعد الحجر الصحّي باتباع تقاليد جديدة في التعاطي مع هذا الوباء بأنّه مقدّمة لإنهاء الحجر الصحي لصالح عودة النشاط الاقتصادي بسبب تضرّر لوبيّات المال والأعمال...

ولكن كيف يمكن للحكومة أن تلقي بشعب كامل إلى التهلكة من أجل عيون زمرة من الأثرياء ومن البرجوازية القذرة التي لا قيم لها سوى البحث عن مصالحها الاقتصادية والمالية من أجل

تحقيق المزيد من فوائض القيمة ومراكمتها...

إنهم يرسمون الخطط للمستقبل وها هي عبقريّتهم تتفتّق عن فكرة سحرية: يجب إيجاد الوسائل التي تشغل الناس بحيث لا يكون أمامهم متّسع من الوقت للتفكير، لأنّ كلّ الاضطرابات المزعجة كانت وليدة تفكير الشعب ولذلك وجب إلهاؤه. وبالفعل بدأوا في تنفيذ الخطة وذلك بإعلان إصابة خمسة أشخاص فقط حتّى يزهو الشعب بهذا الانتصار الباهر ويخرج الناس إلى الشوارع بداية من الغد وممارسة حياتهم الطبيعيّة..

لم يكن لي الجَلَد لأرغم مجد ومايا على تغيير المحطة في التلفزة لأستمع إلى ثرثرة هؤلاء السياسيين الذين صرتُ أكرههم كرهي لصورتي في مرآة محنتهم المستقبلية. إذ أنّهم بتلاعبهم بالأرقام وإخفاء الحقائق لصالح مؤجّريهم من الفاسدين سيدفعون ثمنا باهظا جدّا من جثث أبناء الشعب وأرواحه والهياكل العظميّة لأحمرة الحمّالين في القرى النائية التي تتثاءب خلف العلف المفقود في اصطبلات أشبه ما تكون بأكواخ الفقراء المبنيّة بالطوب والملتصقة بعرق أهلها المخلوط بالبصاق والتي تنبعث منها روائح البراز والبول الكريهة وهي تفتقد لمطبخ وموقد وتتراكم فيها الألبسة البالية التي يستعملها أصحابها أسرّة للنوم وأغطية لبرد الشتاء وملابس لأجسادهم المنهكة وعلفا لحيواناتهم عندما يشتدّ الجدب...

حقّا إنّ للفيروس عالمٌ واسعٌ وماكرٌ أيضا!

– 18 –

الخميس 09 أفريل 2020

أنـا فيـروس كورونـا المسـتجد ويطلـق علـيّ المثقّفـون اسـم كوفيـد 19 وأحيانـا يطلـق الأطبّـاء علـيّ تسـميات لا أحبّذهـا مثـل سـارس كـوف2 مـا يثيـر حنقـي ويجعلنـي أسـتهدفهم هـم بالـذات برصاصاتـي دقيقـة التصويـب. لسـت فزّاعـة علـى الاطـلاق ولا غـول. بـل إنّنـي مـن فصيلـة نقيضـة لطبيعـة إنسـان العقـود الخمسـة الأخيـرة، هـذا الكائـن الـذي يقـدّس الرذيلـة. ولْأقلْهـا بينـي وبينكـم إنّ ذلـك بالـذات هـو مـا يبـدو لـي أحـد عناصـر احتقـاري لـه ورغبتـي الجامحـة فـي محـوه مـن علـى البسـيطة فـي أسـرع وقـت ممكـن فأنـا تلميـذ للكوليـرا والحمّـى الاسـبانيّة وإيبـولا... إنّـي لأفضّـلُ أن أكـون طاعونـا عاقـلا علـى أن أكـون إمامـا!

كلّ شـيء يتّسـع لـي فأنـا الجبّـار والقديـر والقـويّ وفائـق الإدراك، أتغيّـرُ متـى شـئتُ وأغيّـرُ كلّ شـيء، أتجـدّد ولا أشـيخ وأجـدّد كلّ شـيء، دائـم العمـل ومسـتريح، أغضـب وأثـور وألتهـم كلّ شـيء، أغيّـر أعمالـي ولا أغيّـر مقاصـدي

إنّ آخر ما أعدُ به هذه الفصيلة الواطئة هو القضاء على هذا النسل الفاسد من أجل انقاذ الأطفال وبعض الشعراء. وليعلم الجميع أنّ تمريغ الغرور في الوحل هي حرفتي، ذلك أنّه منذ أن أبتُدِعت أكذوبة أعراضي المتمثّلة في ارتفاع حرارة الجسم والسعال والاسهال من أجل تجريدي من فعاليّتي، غيّرتُ التكتيك وأصبحتْ أعراضي تختلف من مكان إلى آخر. كأنْ تصبح وجعا في المعدة أو إحساسا بالجموح أو حمرة في العينين أو حكّة في الجلد أو رغبة جامحة في ممارسة الجنس أو حالة انتشاء واضحة أو غيرها من آلاف الأعراض التي يمكن أن تصيب الانسان.

وبعد ذلك عندما أصبحتْ أكذوبة وسائل التحليل الكميّة هي التي ستنقذ البشرية من جوعي ومن غضبي، أصبحتُ أسكن الأجساد دون أعراض ظاهرة وأحصد الأرواح دون أن ينتبه لذلك أحد. إنّ التزييف الذي تقوم به البشريّة اليوم بقيادة علماء الفيروسات والبيولوجيا والأطبّاء هو تزييف بلغ حدّ تقديس الأوهام العلميّة المناقضة لتلك التي كان بإمكانها أن تتفطّن للحيف الذي يلحق بالكون وتسعى بلا هوادة لتدميره.

من يعرف كيف يتنفّس الهواء الذي أسكنه سيدرك أنّه هواء مجبول لمثل هذا الزمن، هواء حارّ لا يصيب بسوء.

من بين كلّ انجازاتي يحتلّ الأطفال والشعراء والفقراء موقعا خاصّا، عبرهم تقدّمتُ إلى البشريّة بأكبر هديّة لم يسبق لها أن نالت مثلها إلى حد الآن... إذْ ليسَ أعظَم عندي مِنْ أن أمرّغ

رؤوس القوى العظمى في التراب وأن أجعل من الشركات العابرة للقارات تخسر نصف عائداتها في بضعة أشهر وأن أغلق غالبيّة المناطق الصناعية في العالم وأن أجعل الكون يتنفس هواء نقيّا لم يتنفّس مثله منذ أكثر من قرنين وهو ما سيعيد أنواعا قاربت على الانقراض إلى الأنهار والبحار والغابات

ألستُ أنا مَنْ جعلهم يدركون هشاشة الحداثة التي يتبجّحون بها وهشاشة «العولميّة» التي يفاخرون بها وهم يدوسون على الطفولة وعلى كرامة الأكثر فقرا من بين عشّاق الدنيا بلا رحمة أو شفقة ويسحقون أحلام أجيال كاملة دون التفاتة صغيرة؟ هؤلاء الذين يدّعون العظمة أثبتوا أنّهم عاجزين على مواجهتي حتّى بصنع كمّامات ورقيّة...

إنّ سعادة وجودي وما يحدّد طابعها المتفرّد أنني كنتُ نتاجا لصلف أولئك الذين يدّعون العظمة. هؤلاء المزهوّون «بالعولميّة» باعتبارها أرقى مراحل التطور التاريخي للبشريّة متمثّلة في انتهاء الحواجز والحدود بين الدول وتحقيق الانتقال الأكثر سرعة وانتشارا للبشر والسلع والمعلومات وتحقيق الأرباح الأكثر مراكمة عبر المضاربات العابرة للقارات واحتكار الطاقة وتطوير العلوم وتجويع الشعوب المضطهدة.

لقد كنت نتاجا لغرورهم وانتقلت بلا حواجز ولا حدود بين الدول ووصلت إلى أبعد مكان في العالم بسرعة فائقة وتلك ميزتي الخاصّة أيضا.

إنّني أتمتّع أكثر من أيّ فيروس آخر بحاسّة ذكاء مرهفة لالتقاط علامات الأطبّاء قبل محاصرتي! ذلك أنّني عرفتُ الطريق التي تُمكّنني من تطوير نفسي المستمدّة من آليّة التنقّل الحر والسريع التي وفّرتها لي أسباب «العولميّة».

مات أبي «كورونا» وأنا في الثانية من عمري، كان عليلا مثل كائن مهيّأٍ ليكون عابرا لا أكثر، مجرّد ذكرى لم تبلغ غايةً تستحقّ الذكر. في تلك الفترة كان عليّ أن أتخلّى عن الخطّة التي رسمها أبي لأنّها أثبتت فشلها وسيتمّ القضاء عليّ بمجرّد اكتشافي. لذلك قضّيتُ بقيّة السنوات قبل بداية هجومي في هيئة شبح في ووهان ثمّ عشت في هيئة شبح في ميلانو وفعلت الأمر نفسه في مدريد ونيويورك وبرلين وباريس ولندن...

وفي اللحظة الحاسمة التي تأكّدتُ فيها من انتصاري بعد أن وضعتُ الخطط والاستراتيجيّات وتكتيكات التحوّل والتطوّر بدأتُ الهجوم. في الحقيقة لا يمكن أن أصف رسالتي «بالهجوم» لأنّ في ذلك معنى الحرب التي يشنّها الأعداء على الأعداء ممتلئين بحقد غامض ورغبة شريرة في الانتقام.

إنّ رسالتي التي جئتُ بها إلى العالم أسمى من اعلان حرب لأنّ لي حسّ مرهف للفوارق الدقيقة في حين أنّ الحرب لا تفرّق بين الشيوخ والأطفال وبين الفقراء والأغنياء. أمّا الرسالة فلها هدفٌ محدّد أسمى من الحرب. وكانت تلك أطول دربة لي، لذلك استثنيتُ الأطفال - أو لأقل الغالبية الساحقة لأطفال العالم

باستثناء البعض ممّن أصابتهم سهامي خطأ وأقدّمُ اعتذاراتي الخالصة لأرواحهم ولأمهاتهم اللاتي فقدنهم - واستثنيتُ الدول الهشّة والقرى الفقيرة تلك التي تمّ استثناؤها من التنمية ومن تطوير نظام صحّي قادر على مواجهة أبسط الأمراض لمدّة عقود طويلة. وكان سكانها عرضة لفساد مستمرّ لرجال السياسة وبارونات الفساد. لذلك تستطيعون أن تفهموا لماذا لا أصيب قرى بعيدة ومقطوعة عن أي اتصال مثل تلك التي توجد في جندوبة أو في سليانة بأية رصاصة!

لستُ نبيّا ولست أحد المبشِّرين بفناء الدنيا، ولكن يجب على هذا الكائن البائس الذي يسمّي نفسه «الانسان» أن يصغي جيّدا إلى حكمتي قبل أن أؤوب إلى وحدتي من جديد.

انصرفوا عنّي إذن واحترسوا منّي بل وأكثر من ذلك اخجلي من نفسك أيتها الروح الانسانيّة السافلة ولتترفّعي قليلا بعد مروري بك ولتفهمي أنّ الحبّ لا يعني البتّة المتعة الماديّة! وعوض أن تبحثي عنّي للقضاء عليّ ابحثي عن نفسك!

- 19 -

الجمعة 10 أفريل 2020

أفقت اليوم متأخّرا جدّا فقد سهرت إلى ساعات الصبح الأولى بسبب الأرق الذي لازمني خلال الأيّام الأخيرة وكان عليّ أن أخرج لشراء بعض الحاجيّات الضروريّة فقد مرّت أيّام طويلة لم أقترب من باب الخروج.

كان المقابل الذي يجب أن أدفعه من أجل أن يُعدّ مجد دروسه هو أن ألعب معه مباراة في الشطرنج لأنّه أكمل واجباته لهذا اليوم وهو يشعر بالراحة مثلما أخبرني وابتسامة سعيدة تعلو وجهه. بدأت معه المقابلة وأنا أفكّر في الوقت الذي يمكن أن تستغرقه هذه المعركة...

كان عليّ أن أخرج وأبحث عن محل مفتوح لأطبع أوراق الواجبات المدرسية لمجد التي أرسلتها إدارة مدرسة خزندار الخاصّة.

بعد العودة الى الزنزانة استندت إلى جدار الغرفة مخفيا حزني عن مجد ومايا وسلمى وقد اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أستمع لـ «أغنية معلوم هذا معلوم الدنيا يوم بيوم». لطالما قلت

في نفسي إنّ ما نحن فيه ليس أكثر من حالة إيقاف مؤقت في انتظار المحاكمة والحكم علينا بعدم سماع الدعوى، ولكنّي بدأت أدرك أننا لن نحظى بأيّ فرصة للإفراج عنّا بل سنقضي أسابيع وربّما أشهرا طويلة قبل انتهاء هذا الكابوس.

كان الأمل الوحيد يتلخّص في اكتشاف دواء فعّال وتصنيعه بسرعة فائقة لإخراجنا من هذا السجن ولكن عليّ الصمود في هذه الظروف الصعبة حتّى لا أؤثّر على معنويات بقيّة أفراد العائلة. وبينما كنت أتظاهر بالنوم على كنبة الصالون أمام التلفاز، كان مجد يعدّ واجباته المدرسية وكانت مايا تروي لنفسها حكايات تستحضر فيها معلّماتها في روضة الأطفال وأحيانا تغوص بحكاياتها في عوالم لا يستطيع أحدٌ غيرها أن يُدركها، محاكية أحيانا اللغة الفرنسيّة وأحيانا أخرى اللغة الأنقليزية، وكانت سلمى كعادتها محبوسة في المكتب لإتمام خاتمة بحثها ومقدّمته حتّى تتمكّن غدا من ارساله إلى أستاذتها المؤطّرة الكاتبة رجاء بن سلامة.

نزعت ملابسي ودخلت تحت الدوش لأنزع عنّي رائحة كريهة ظلّت تُلازم أنفي لأيّام. كنت محرجا قليلا لحظة نزع ملابسي ثم تقدّمتُ في وجل مغمورا بالماء الساخن إذ لاحظتُ أنّ بنات كورونا ينظرون إليّ بنظرات قاسية ويبدو أنّ معلومة أنّني بصدد كتابة مذكّراتي عن الحجر الصحّي وما تحدّثت به عن قائد العالم الذي قام بتركيع أمريكا وأوروبّا والصين وبقية العالم لم تعجبهن. ولاحظت من جديد أنّهم بدأوا بالاقتراب منّي والنعوت النابية تتساقط عليّ كالبصاق. كانت شتائمهم تخلع ملابسها وتقفز

إلـى جانبـي تدفعنـي خـارج مسـاحة مـرشّ الماء المنسـاب على رأسـي لتأخـذ هـي مكانـي، حاولـت الحفـاظ علـى هدوئـي ومـع صـوت رقرقة الميـاه ميّـزت أصواتهـم بوضـوح

ـ لديه آلة مُغرية (قالت إحدى بنات كورونا ضاحكة).

ـ إنّها تحتاج أن نتذوّقها قالت أخرى في غنج.

ـ ولديه مؤخّرة طفل.

ـ استدر أيّها الشاعر حتىّ نرى ثقبك الصغير.

ولفـرط الهلـع الـذي أصابنـي مـا عدت قـادرا علـى الحركة وتسـارعت دقّـات قلبـي، وفـي أشـدّ اللحظـات هلعـا ويأسـا نتيجـة احساسـي أنّـي وقعـت فريسـة أبنـاء كورونـا، ظهـرت مـن أعمـاق ادراكـي فطنـةٌ ذات وجـه مشـرق ونظـرات حازمـة وقامـة فارعـة تشـبه شـجرة النخيـل

ـ لـن يلمسـه أحـدٌ مـا دمـتُ هنـا قريبـة مـن حلمـه ومـن أحزانـه العميقـة التـي لا يدركهـا أحـد حتّـى وإن كنتـن أنتـنّ! هـذا الـذي تسـتهزؤون بـه يطـرق حديـد الزمـن ويجفّـف السـنوات السـعيدة ليوزّعهـا علـى النـاس عندمـا تنتهـي مؤونتهـم، إنّـه ينبثـق مـن شـقوق الكلمـات مبشّـرا بالحـب.

حينهـا أدركـت بطريقـة هلاميّـة وبـلا وسـاطة أنّـي فـي حلـم وأنّـه عليّ أن أفـرّ إلـى اليقظـة... فخرجـتُ عاريـا مـن غرفـة الاسـتحمام وحيـن لفحنـي هـواء بـاردٌ اسـتيقظتُ لأجدنـي نائمـا علـى كنبـة الصالـون ومجـد ومايـا يعيثـان فسـادا فـي كل مـا وجـدوه بالقـرب منهمـا!

– 20 –

السبت 11 أفريل 2020

كنت في حلم داخل حلم! كنت في بيت العائلة في جندوبة أجلس إلى طاولة وأدوّنُ حلما كنت قد رأيته: اعترضني الشاعر المنصف المزغنّي قبالة نزل إفريقيا في تونس العاصمة سحبني إلى الداخل وفي الاستقبال قبالة الجدار الرخامي الضخم والمزخرف سحبني من يدي ليهديني كتابا جديدا، كانت البداية أصعب مما يمكن أن أتخيّله في كابوس، أخذت منه الكتاب الذي لم أستطع أن أتذكّر عنوانه وقدّم لي معه كتابا آخر زائدا عن حاجته كان رواية لحنّا مينا لا أعرف عنوانها أيضا، غلافها الأبيض مرسومة عليه شجرة خضراء في شكل سنديانة.

عندما خرجتُ من النزل وجدتُ الشاعر أولاد أحمد وقد بدا لي في هيئة الصحفي والروائي حسن بن عثمان دعاني لمقرّ إقامته الذي يبعد عن العاصمة بعض الكيلومترات لعله في رادس الغابة التي بدت لي في الحلم في الضاحية الشرقية للعاصمة قريبا من ضواحي مدينة أريانة، ليهديني كتابه الشعري الجديد وكان رفقتنا شخص لم أتبيّن ملامحه. وكان كتابه عبارة عن سمكة كبيرة

مطهـوّة وكان علـيّ أن آكل تلـك السـمكة ليفهـم الوعـي أنّ ذلـك هـو الكتـاب. وبعـد ذلـك قـدّم شـوك السـمكة إلـى ذلـك الشـخص الصامـت الـذي كان قريبـا منّـا. عندهـا غضبـت غضبـا شـديدا لأنّـي فهمـت أنّ شـوك السـمكة هـو المخطـوط فسـحبتُ الأديـب إلـى ركـن بحيـث لا يسـتطيع ذلـك الشـخص ذو الملامـح الغامضـة أن يسـمعني فيـه وقلـت لـه: «ألا تعـرف خبرتـي فـي التوثيـق والأرشـفة لِمَ لا تعطينـي مخطوطتـك» فـردّ علـيّ بهـدوء وقـال لـي «لا عليـك لـديّ الكثيـر مـن المخطوطـات»

حيـن أفقـتُ وجدتنـي فـي بيتـي فـي قليبيـة وكان علـى ربـوة وسـألتُ سـلمى عـن عنـوان روايـة لحنّـا مينـا غلافهـا الأبيـض مرسـوم عليـه شـجرة خضـراء شـبيهة إلـى حـدّ مـا بالسـنديانة. كنّـا نسـتعدّ للرجـوع إلـى تونـس حيـن انهمـرت أمطـار غزيـرة جعلـت وادي مجـردة يفيـض ويغـرق المدينـة الهادئـة بـكل مـا فيهـا وسـمعت النسـاء اللواتـي كان المـاء يحملهـنّ فـي طريقـه إلـى المصـب يقلـن «كل مـا نعرفـه أنّنـا مـا كنّـا لنجـد أنفسـنا فـي هـذه الحالـة» كنـت أمضـي جيئـة وذهابـا بيـن المنخفـض أيـن يحمـل الـوادي الأحمـر كل شـيء وبيـن الربـوة حيـث بيتـي، فـي سلسـلة مصادفـات عصيّـة عـن الفهـم مُحـاولا أن أنقـذ الـدواب والدواجـن وقـد أصـاب عمـى أبيـض الغرقـى فـي الـوادي الـذي كلّمـا أمعنـتُ النظـر إليـه تحـوّل إلـى نهـر جـارف لأولئـك المسـاكين البائسـين الذيـن كانـت الأمـواج تصفعهـم علـى وجوههـم وعلـى مؤخراتهـم العاريـة إلـى أن بـدا الأمـر كأنّهـم ولـدوا أمواتـا والأمـواج وقـد اختلطـت بمخلفـات مصانـع الطماطـم والسـمك وعجين

الزيتـون تطلـق روائـح نتنـة تشـبه رائحـة خلّفهـا تغـوّط الصيـن فـي غرفـة مغلقـة!

- يـا إلهـي أ كلُّ هـذا الـدم هـو دم النهـر المجـروح؟ صرخـت مايـا.

- نعـم يـا عزيزتـي، أجبتهـا، إنّ النهـر وهـو يفيـض يخـرج عـن مسـاره ويدخـل المدينـة وفـي طريقـه يمـرّ علـى مصانـع البلّـور والحديـد والرخـام ويحطّـم مسـتودعات النجـارة والحـدادة ويكسّـر بقبضـة يديـه كل مـا يجـده فـي الأسـواق لذلـك يُجـرح ويظـلّ ينـزف طـوال فيضانـه.

أحسسـتُ وأنـا أنظـر إليـه مـن علـى الربـوة بموجـة تعصـفُ فـي دخيلتـي: الفقـراء لا يملكـون شـيئا ومـع ذلـك يأخذهـم هـذا النهـر الأحمـر مـع الآخريـن إلـى جحيـم ملكـوت السـماء حيـث يكـون الله واحـدا لـدى الجميـع: الفقـراء والأثريـاء!

«مائـة وسـبعون دولـة ستشـهد انكماشـا لدخـل الفـرد لديها وسـتدفع نصـف مليـار شـخص إضافـي الـى الفقـر» هـذا مـا كانـت تنقلـه قنـاة فرانـس 24 عـن مديـرة صنـدوق النقـد الدولـي حيـن انتفضتُ مـن كابـوس الفيضـان الـذي أصبـح يتكـرّر معـي...

خلـف هـذا الكابـوس يتهيـأ العالـم بحـرص وخـوف! وعلـى عتبـة مـوت الفقـراء تبـدأ حيـاة الأثريـاء الذيـن لأوّل مـرّة منـذ زمـان طويـل سـينظرون برمـوش مرتخيـة إلـى إمبراطوريّاتهـم بمناظير

حزينــة مــن رخــام أبيــض تترنّــح تحــت ضربــات الفيــروس للاقتصــاد المــادّي وسـيكتبون مـا لـم يكتبـوه ذات يـوم: كل شــيء مسـتعدّ للانتحـار ومـع ذلـك نحـن المسـتعبِدون، الخارجـون عـن القانــون، المتهرّبــون مــن الضرائــب، الملعونــون لا نستســلم! سـنمتصّ دم الفيـروس إن لـزم الأمـر!

- 21 -

الأحد 12 أفريل 2020

أمس فرغتْ سلمى من بحثها الجامعي وقامت بإرساله لمؤطرتها وسهرنا معا على غير العادة وهو ما جعل مجدا ومايا يحدثان الشغب الذي لم يحدثاه بالبيت منذ دخلنا الحجر الصحي وظلاّ ساهرين إلى ما بعد الواحدة صباحا وهما يلعبان في مدينة الألعاب التي شيّداها في الصالون بكل ما تجمّع لهما من خردة اللُّعب التي ظلّت بحوزتهما بعد أن قاما بتدميرها بالكامل منذ زمن. وبدا وكأنّهما في ليلة حفل راقص وزّعا فيه علينا المشروبات والحلويّات فَرَحًا، وكل الثروات المتبقية في ليلة واحدة وسمعت مايا تُغنّي:

«البيتُ ملجأ في العاصفة

بينما كل ما أريده هو أنت...»

واليوم وقد عمّت الحركة والضجّة البيت وكأنّنا نستعدّ للخروج أو إلى العودة المدرسيّة بعد عطلة الصيف الطويلة فقد أدخلت سلمى مايا إلى غرفة الاستحمام لتأخذ حمّاما دافئا وأخرجتها بعد حين

وألبَسَتْها لباسَها ثمّ أدخلتْ مجدا بعدها ولذتُ أنا بالمكتبة للنجاة بنفسي من هذه الضوضاء وقد أثار فيّ البقاء في المكتبة فضولا مُحتدما. إذ رأيتُ حشرة صغيرة تسعى بدت لي كأنّها أرَضة كبيرة غادرت بيتها في أحد الكتب اقتربتُ منها أكثر وتأمّلتُ فيها فبدت لي كأنّها خنفساء حمراء دقيقة. وخُيّل إليّ أنّها شخص مهووس بفكرة واحدة اعتزل العالم وبنى بنفسه وبأدوات خاصة عالما مصغّرا داخل أحد الروايات واستغرق في القراءة عمرا كاملا في غضون ذلك بدأ يبتعد عنّي ويتحاشاني فوق الرف كلما حاولت الاقتراب منه أكثر لأتفحّص سحنتهُ فلعلّي عرفته من خلال ملامحه الخنفسائيّة أنا الذي لم تُتَح لي إلى حدّ الآن أن تعرّفتُ على إنسان مُسخَ إلى خنفساء. وكلّما حاولت الاقتراب أكثر ازداد ابتعادا وهو ما جعلني أنزعج وأشعر بالضيق وأنا أرى فرصة التعرّف عليه تتبخّر أمامي. أيّ حقيقة لإنسان مُسخ وسجن طوال حياته في حيّز لا يتجاوز حجم كتاب؟؟ كنتُ أدركُ حسب التجربة ما كنتُ أفكّرُ فيه باستمرار وقد أنفقتُ حياتي بحثا عن المعنى وعن القيم في حين كان زملائي من المتخرّجين من كليات القانون يراكمون ثرواتهم ويُشيّدون القصور... لاشكّ أنّ أغلبهم لا يشعر بوطأة الحجر الصحّي التي يشعر بها مَن هو مثلي معلّق في قفص الأرانب هذا، ولا شكّ أنّهم يتمدّدون في كراسيهم الهزّازة في حدائقهم الغنّاءة يستمتعون بأغنية «مفتون بخزرة عينيها» للهادي الجويني وهم يترشّفون شايا أو نبيذا أو مشروبا روحيّا أو ما تيسّر لهم وتعسّر علينا نحن الكادحين...

ـ أنت على حق ولكن المشكلة ليست في أولئك الذين راكموا الثروة، وإنّما فيك أنت لم تستطع إلى حد الآن، ورغم ادعائك بأنّك كاتب وقارئ ومثقّف، أن تجد المعادلة بين أن تكون في بحبوحة من العيش وتضمن حياة مرفّهة لأسرتك وبين القيم والمبادئ التي تُدافع عنها... لقد نذرتَ حياتك فيما مضى لمناهضة روح الغباء القذرة التي تسود العالم بحكمتك الحزينة وأنت تبحث عن الحقيقة وتحلم أبدا بإعادة تأسيس العالم ولكنّكَ في سعيكَ ذاكَ كنت تنعزل عن العالم وتتّبع دروب الرفض والانقلاب حتّى على أعماقك حتّى تاه بريق روحك في خطايا العقل ولم تعد تعرف الطريق المؤدّية إلى الحلم ولا الطريق المؤدّية إلى تجاوز الذات (...).

ـ وهل لك أنتِ أن تدلّيني على الطريق؟ ألستِ أنت مثلي ظللتِ عمرا كاملا بين الكتب وبين الكتّاب تقرئين لهم وتتعلّمين منهم وفي النهاية ماذا تعلّمتِ؟

انتبهتُ في تلك اللحظة أنّ الخنفساء الصغيرة جدّا والتي كانت في شكل أرضة كبيرة قد اختفت من جديد بين الكتب وأحسستُ بأنّها تركتني أسفّ التراب. دون أن تترك لي الفرصة لأقدّم إليها تفسيراتي البائسة.

ظلت مداخلة الخنفساء ذات الإيقاع المترنّم تضفي خلفيّة جديدة ونظرة أخرى لمكتبتي التي أشعر باستمرار لفرط ما فيها من

كتـب ومجـلات وصحـف ومخطوطـات وتسـجيلات أنّ لهـا صوتـا ويمكنهـا فـي كلّ لحظـة أن تكلّمنـي أو أن توعـز لأحـد مخلوقاتهـا أن يكلّمنـي سـواء كان صـورة أو قلمـا أو حشـرة أو أحـد أبطـال الروايـات أو حتّـى أحـد الأحذيـة الموجـودة هنـا غصبـا عنّـي!

قـرّرتُ أن أخـرج إلـى الصالـون لأغيّـر الأفكار السـوداء التـي انتابتني إلاّ أنّنـي وجـدتُ شـريط الأخبـار يمـرّ فـي أسـفل الشاشـة ويُعلـن عـن ظهـور أول إصابـة بفيـروس كورونـا المسـتجد بولايـة جندوبـة أيـن يسـكن أبـي الـذي جـاوز الثمانيـن عامـا وأمّـي التـي لا تصغـره بأكثـر مـن خمـس سـنوات وأختـي التـي سـتبلغ السـتين بعـد عـام ولـم أجـد بـدّا مـن نـزع ملابسـي والتسـلّل تحـت شـلاّل الميـاه السـاخنة لأغيّـر الأفكار التـي صـارت تشـبه **لوحـة سـالفادور دالـي «وجـه الحـرب».**

– 22 –

الاثنين 13 أفريل 2020

لقد اكتشفتُ خلال الحجر الصحي أنّ البيت الحقيقي للمرء هو فراشه. لم أكن أعبأ كثيرا بالأسرّة والفرش ولكن خلال فترة البقاء في البيت اكتشفتُ أنّ جزء من أتعاب الليل هي الفراش. كنتُ كلّما دخلتُ غرفة نزل خلال سفراتي لا أنظر إلى أيّ شيء آخر عدا الفراش. عندما يكون عامل الفندق بصدد الحديث عن ميزات الغرفة وإطلالتها على البحر أو الغابة أو المدينة وعندما كان يشير إلى رفاهية بيت الاستحمام أو إلى طريقة تشغيل التلفاز كنت عادة ما أنظر إلى الفراش وملاءته البيضاء ومخدّته الكبيرة المحشوّة بالقطن. وكنت غالبا ما أنزع كل ملابسي وأدخل تحت الغطاء عاريا تماما وكأنّني أدخل إلى مغطس بماء دافئ. إنّ التصاق جسدي بالفراش وبالملاءة البيضاء التي تعبق منها رائحة الغسيل يُشعرني بأمل غامض واحساس رائع ولا أدري هل كنتُ أتدرّب على النوم في القبر بجسد عار ملتفّ في كفنٍ أبيض أم أنّني كنتُ أبحثُ عن اللذة التي تخترقُ جسدي وأنا أبحثُ عن جسد المرأة المفقود وهي ترقد عارية بجانبي!

غـادرت غرفـة النـوم خـلال فتـرة الحصـار وأصبحـتُ أنـامُ فـي الصالـون علـى الكنبـة وهـي الحالـة التـي تذكّرنـي بالوضعيّـات الاسـتثنائيّة التـي تابعـت فيهـا عـن طريـق القنـوات التلفزيّـة خبـر سقوط بغداد سنة 2003 أو حرب لبنـان سنة 2006... إذ كنّـا خـلال الأيّـام الأولـى لسـقوط النظـام بُعيـد الرابـع عشـر مـن جانفـي سـنة 2011 نعيـش فـي بيوتنـا حالـة اسـتثنائيّة.

بعد مـرور مـا يربـو عـن التسـع سـنوات مازالـت راسـخة فـي ذهنـي صـور تلـك الجمعـة التـي نزلنـا فيهـا إلـى الشـوارع مطالبيـن بإسـقاط النظـام. فـي العاشـرة صباحـا وصلـت أنـا وسـلمى وأحـد الأصدقـاء مـن أبنـاء حـزب العمّـال الشـيوعي التونسـي المحظـور إلـى العاصمـة علـى متـن سـيّارتي ألمانيّـة الصنـع بولـو5 ركنتُهـا فـي نهـج مرسـيليا وسـرنا علـى الأقـدام فـي اتجـاه الشـارع الرئيسـي. فـي تلـك المسـافة مـن المسـيرة الصامتـة وقـد تـراءت لـي الحشـود مـن بعيـد، انتابتنـي أكثـر الأفكـار إثـارة للمشـاعر بسـبب درجـة العنـف التـي بلغهـا النظـام فـي التعاطـي مـع المظاهـرات فـي داخـل البـلاد وبسـبب شراسـة شـرطة النظـام ضـد الشـباب الأعـزل الـذي كان ينتفـض هنـا وهنـاك فـي بقـاع كثيـرة وتأتينـا أخبـاره عبـر الأصدقـاء وعبـر صفحـات الأنترنـات التـي اخترقـت الحجـب وعبـر بعـض القنـوات المناضلـة وبالأسـاس عبـر قنـاة الجزيـرة القطريّـة. فـي منـاخ التوتّـر العالـي ذاك وفـي تعبيـر الخطـاب السياسـي الأكثـر ضبابيّـة عـن حالـة البـلاد المعنويّـة وفـي انتشـار الإشـاعات المتضاربـة حـول مـا كان يحـدث فـي القصـر وفـي الدوائـر القريبـة مـن القـرار، نزلـت الحشـود إلـى

الشارع بقرار مسبق بالإضراب العام من قبل قيادة الاتحاد العام التونسي للشغل التي كانت تحاول ملاحقة الأحداث وتؤطّر رغبة الجماهير الغاضبة...

بعد ساعتين من رفع الشعارات والذهاب والايّاب في الشارع أمام وزارة الداخليّة قبلنا الدعوة من بعض الأصدقاء إلى الغداء في مطعم في التقاطع المكتظ بين شارع بورقيبة ونهج قرطاج، في ذلك الجو المتوتّر جلسنا لتناول الغداء ولم تكن البيتزا قد قُدّمتْ إلينا بعدُ، حتّى اختنقنا بالغاز المسيل للدموع وسُمع صوت الرصاص. بقينا في المطعم لأكثر من ربع ساعة وكان المنتفضون يزوّدوننا بالحليب وبمشروب الكوكا لإزالة آثار الغاز لكنّ صاحب المطعم طلب منّا المغادرة حتى يغلق المحل خوفا من اقتحام البوليس له وتحطيم كل محتوياته... كان علينا أن نركض باتجاه السيّارة ولكن البوليس كان يحاصر كلّ مداخل شارع الرئيس وقفت أنا وسلمى حائرين ممّا نشاهد أمامنا ومن أصوات القنابل والرصاص إلى أن صرخ فينا أحدهم فجأة «هيّا تحرّكا، اركضا قبل أن أنهال عليكما!». كان أوّل ما خطر لي أن أشقّ الشارع في اتجاه شارع باريس ولكن الكرّ والفرّ بين المتظاهرين والبوليس وبداية تصاعد ألسنة النيران في كل شبر الذي كان يأتي من العجلات المطّاطية التي أحرقها المتظاهرون والدخان الكثيف الذي أبكى الهواء جعلنا نغيّر الوجهة وندخل عبر نهج عاصمة الجزائر متحدّين أخطار الأنهج والشوارع التي أصبحت في حالة حرب ومحاولين الوصول إلى مقر الحزب

الديمقراطي التقدّمي. كان يكفي أن نتجاوز زقاقا ونحاذي نهج سيف الدولة وهكذا صعدنا درج البناية قافزين لنجد أنفسنا في مقر الحزب المكتظ بمنخرطيه وروّاده وقيل لنا إنّ القيادة بصدد التفاوض على طريقة تسوية مع الحكومة... كان في بهو المقر جهاز تلفزة يعلن عن «بيان هام جدّا سيتمّ إذاعته بعد حين»... كنت من حين لآخر أطلّ على البلكونة لأجد السماء مكفهرّة يعلوها دخان أسود يتصاعد من السيارات المحترقة بينما كانت مجموعات الشباب الغاضب ترمي رجال الشرطة بما تطاله أيديها من الحجارة والمقذوفات... في تلك اللحظات كانت الأخبار المتضاربة تنقل فرار بن علي وعائلته على متن طائرة رئاسية خارج أرض الوطن...

عندما بدأ الوقت يتأخّر وقبل ساعة من بداية حظر الجولان كان علينا أن نصل إلى سيّارتنا في نهج مرسيليا. عندما عزمتُ على المغادرة ولتأمين وصولنا سالمين إلى السيّارة رافقنا الصديق إصلاح الداودي الذي وجدناه وصل قبلنا إلى مقر الحزب. ركضنا باتجاه مقصدنا عبر نهج سيف الدولة قاطعين شارع باريس ونهج لينين لنجد أنفسنا وجها لوجه أمام مجموعة من الشباب الهائج من الذين كادوا أن يشجّوا رؤوسنا نتيجة عدم فهم تصرّفنا ونحن نتقدّم إليهم تاركين خلفنا رجال الشرطة الذين كانوا في مواجهتهم. ولولا أن رفعت سلمى وشاحها بيدها علامة للسلام لكان مصيرنا مختلفا...

كان يمكن لنا أنا وسلمى أن نموت في ذلك اليوم الذي تداخلت فيه الأحداث والوقائع والصراعات التي لم تعد مفهومة وكان من المستحيل معرفة حقيقة ما يجري إلا بعد سنوات طويلة ولم تحصل حتّى يومنا هذا قناعة مُجمعة حول حقيقة ما حدث في ذلك اليوم...

عندما رجعنا إلى البيت كانت ألسنة اللهب في الطريق تتصاعد من معظم شوارع العاصمة وكانت هناك سيّارات مقلوبة وأخرى تشتعل فيها النيران وكانت الإذاعة إلى ذلك الوقت ونحن في السيارة لا تُقدّم أيّ أخبار وحين حاولت تغيير المحطة وجدتها تبثّ أغنية يوسف التميمي «بين الخمايل» وكانت تلك الساعات أشبه بحلم. حين وصلنا إلى مفترق طريق العقبة والطريق المؤدّي إلى بيتنا في حيّ الإذاعة وجدنا قبالتنا شرطيّا شاهرا مسدّسه في وجهينا وهو في حالة اضطراب قصوى وكانت تلك المرّة الأولى في حياتي التي يشهر فيها أحد ما سلاحه في وجهي وأنا قبالته مباشرة ولا تفصلني عنه سوى مسافة قصيرة، بعد تردّد لم يدم أكثر من بعض أعشار الثانية أمرني بالمرور بسرعة...

عندما دخلنا إلى البيت انهرتُ على الكنبة. كانت نشرات الأخبار في التلفزات ترسم سيناريوهات عديدة لهروب الرئيس في طائرته الرئاسية متجها حينا إلى فرنسا وحينا إلى جزيرة جربة وحينا آخر إلى العاصمة الليبية إلى أن جاءت الأخبار المؤكّدة والتي تشير إلى أنّه فرّ إلى المملكة العربيّة السعوديّة. وفي طريقه إلى جدّة كان يُجري الاتصالات من طائرته للاتفاق على صيغ

طوارئ وكانت أكثر تلك الصيغ إلحاحا، هي التوجّه إلى المملكة العربية السعودية مع عائلته والمكوث هناك لأيّام حتّى يهدأ الوضع المتفجّر قبل أن يعود لمباشرة مهامّه والانتقام من كل المعارضين والثائرين! ومع وصوله إلى جدّة نهاية المساء، كان الجنرال قد فقد الاتصال مع أكثر المقرّبين له خطورة... ووسط الأخبار الكثيرة والمتضاربة ظهر الوزير الأوّل وبجانبه رئيس البرلمان ورئيس مجلس المستشارين في تلاوة بيان مضطرب يعلن فيه عن الشغور المؤقّت لمنصب رئيس الجمهوريّة قبل أن يتمّ الإعلان عن الشغور النهائي بعد أقل من أربع وعشرين ساعة.

في تلك الليلة تسلّم الجيش زمام الأمور وتعدّدت إشاعات في قناة حنّبعل الخاصّة تشير إلى أنّ السكّان يهاجمون بعضهم البعض بل إنّها فتحت خطوطا هاتفيّة يتصل من خلالها المواطنون والمواطنات بالمذيع وينقلون استغاثاتهم وبدأت أخبار الفايسبوك في نقل وقائع تبيّن بعد أسابيع أنّها كاذبة: فرار المساجين وهجومهم على السكّان، امرأة تمّ احراقها، رجل تم رجمه حتّى الموت، مجموعات مسلحة تطلق النار على المواطنين، منحرفون يهجمون على البيوت يقتلون الرجال ويغتصبون النساء ويسرقون كل ما يجدون أمامهم...

كل تلك الأخبار المتدافعة جعلتنا ننام بملابسنا وبأحذيتنا في الصالون متوسّدين عصيّا وسكاكين لعدّة ليالي وكنتُ من حين إلى آخر أستفيق على وقع زخّات رصاص متفرقة من القنّاصين

المنتشرين في عدّة بنايات أو من قوّات الجيش المرابطة في الشوارع وأخرج لأجوب مقرّ الإقامة متفقّدا أعضاء لجنة الحيّ التي تشكّلت تلقائيّا - كما في كافة الأحياء - أو مشاركا معهم في حراسة الإقامة...

ووفقا للاستذكارات التي سمعتها من سلمى بعد سنوات، كنّا رغم كل المخاطر المحدقة بنا نشعر بقوّة أنّنا غير مسؤولين إلاّ عن أنفسنا إذ مرّت حتّى ذلك الزمن إحدى عشر سنة دون أن نظفر بقدوم مجد ولا مايا. لذلك كان علينا في اليوم الموالي لسقوط الجنرال أن نعود إلى العاصمة ونتّجه إلى نقابة الصحفيين وفي الطريق كانت ألسنة اللهب تتصاعد من عديد المراكز التجارية والمقرّات الحكوميّة. عندما وصلنا وجدنا الفقيدة نجيبة الحمروني قد سبقتنا إلى هناك تبادلنا بعض الأخبار حول ما يجري وقفلنا راجعين ويم الأحد كان علينا أن نعود إلى الشارع الرئيسي لتقوم سلمى بإنجاز عمل صحفي وننجو من الرصاص في تبادل إطلاق النار قرب نزل افريقيا بين عناصر من الجيش وقنّاصة لا نعرف إلى اليوم إلى أيّة جهة كانوا ينتمون... قبيل ذلك ركنتُ السيّارة في موقف قرب وزارة السياحة منتظرا سلمى التي توجّهت إلى نزل إفريقيا لملاقاة صحفيّة كنديّة وصلت للتو إلى تونس وطلبت أن تستعين بها لإجراء مقابلات صحفية لفائدة القناة الرسمية الكندية. اتصلتُ بالشهيد شكري بلعيد طالبا لقاءه للتفكير بشكل جدّي في ثورة أحدثت فراغا في السلطة واضطرابا في النظام فجاءني صوته منشغلا:

ـ أهلا عادل كيف حالك؟

ـ أهلا شكري بخير، بخير، أريد أن نلتقي لنفكّر في أمر ما يحدث.

ـ حاضر عادل أنا الآن في اتحاد الشغل يمكننا أن نلتقي فيما بعد.

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

ولكنّني لم ألتق به بعد ذلك أبدا وكان عليّ أن أودّعه مع مئات الآلاف من التونسيات والتونسيين في أحد أيّام شهر فيفري 2013 بعد اغتياله على أيدي متطرّفين استئصاليين اندسّوا في الثورة وقاموا بتخريبها وتحويل وجهتها إلى توزيع السماء على الديانات القديمة والجديدة!

– 23 –

الثلاثاء 14 أفريل 2020

«لقد اغترب الفيروس عبر العديد من الأنواع وخاض صراعات بقدر يزيد أو ينقص من النجاح ليسمها بميسمه لاعبا دورا جذابا حينا ودورا فيه الكثير من الوضاعة حينا آخر موقدا وحشيّته النائمة. ثم بعد أن أرهقه الترحال، لا شك أنه تاق إلى الراحة، فبحث عمّن يستطيع إلزامه بتفوّقه بسلام دون أن يبدي أيّ صدٍّ لنزواته واستبداده وعمّن يستطيع التعويل عليه، فتلمّس وجرّب يمنة ويسرة ثمّ عثر أخيرا على الكائن البشري، هذا إن لم يكن هو مَنْ صنعه. في غمرة انهماكه بتطوير نفسه لترميم الجينات التي تم استهدافها وإعادة ترميم ذاته نسي كوفيد التاسع عشر أبسط شؤون الحكم، إلى ان اصطدم بالواقع: لقد وقع في الحب! ولم يتم ذلك في المائة وتسعين دولة التي اجتاحها ولكن حدث ذلك في «قرية عرقوب الريحان» الصغيرة في جندوبة. وانتشرت إشاعة بين الفيروسات تقول إنّه استدعى أخاه كوفيد الثامن عشر على جناح السرعة، حيث وجده يتلوّى من الشعور بالخزي على سرير الهواء البارد وأمره بشكل صارم: «انزع قلبي من مكانه

وألق به في نهر مجردة!»... رئيس العالم يبكي يائسا أمام أخيه متوسّلا أن يشقّ صدره بسكين وينزع قلبه الذي أحبّ امرأة من بني البشر ويرميه فريسة لمياه النهر الجائعة...

وبعد سنوات وبينما هو على فراش الاحتضار سيتذكّر تلك الأمسية الحارة حين دخل عليه أخاه ووجده على تلك الحالة من الإحباط واليأس بسبب سقوطه في بئر الحب حين طلب منه أن يشقّ صدره ويُخرج قلبه ويرميه إلى حيوانات البريّة وقد رفض أخاه طلبه بعد أن تعرّف على المرأة الجميلة التي وقع في حبّها، صارخا في وجهه «مَنْ يستطيع الاقدام على سفالة كهذه؟». لذلك لم يتردّد كوفيد التاسع عشر من إطلاق الرصاص على أخيه ليرديه قتيلا.

أمّا محرزية فلم تستطع أن تنسى في تلك الأيّام من اجتياح الوباء لقريتها، كيف كانت تتصرّف في البيت ككلّ أهل القرية الذين أصيبوا بالهوس والجنون جرّاء الرعب الذي سبّبه الوباء. فقد كانت تنهض من النوم وتبدأ بالغسل ولا تنتهي إلا عندما يأخذها النوم في آخرة الليل إلى مملكته السوداء وأحيانا تواصل التنظيف في الحلم. فكانت تغسل الأواني والجدران والأبواب والنوافذ وتغيّر مكان الأثاث كل يوم وتقوم بغسل الأغطية والملاءات ونشرها في الحديقة. وقد صرّحت إحدى الجارات أنّها لاحظت منذ مدّة تبدّلا غريبا في سلوكها. إذ كانت تقوم بملء إناء كبير بالماء وبعد أن تضع فيه قطعا كبيرة من الصابون الأخضر تركضه بيديها لتصنع منه رغوة ضخمة وتشرع بعد ذلك في غسل أشجار التفاح

والرمّان والسفرجل التي كانت ثمارها تتدلّى لامعة. إذ أنّها كانت تقضّي الساعات تلو الساعات وهي تتسلّق سلّما خشبيّا لامعا وتقوم بتنظيف كلّ ثمرة على حدة وذلك بدعكها بقطعة من الحلفاء ثمّ تقوم بتجفيفها بخرقة بيضاء. وكانت لا تتردّد حتّى في غسل الأغاني القذرة بالماء والصابون. إذ كانت كل نصائح أطبّاء الفيروسات هي غسل اليدين كلّ دقيقتين وتنظيف كلّ ما يحيط بنا حتّى نتمكّن من التغلّب على الفيروس الغامض الذي وقف أمامه العالم مندهشا وعاجزا على مواجهته رغم أنّه لم يبح بكلّ أسراره.

وفي عصر أحد الأيّام بينما كانت محرزيّة تنضو ملابسها قطعة بعد قطعة لترتمي في مغطس الحمّام الدافئ، كان عليها أن تشقّ باحة الدار الواسعة عارية بين غرفتها وبيت الحمّام. وعندما لمح كوفيد التاسع عشر، الذي كان يترصّدها على سطح البيت، جسدها البرونزيّ المصقول وجيدها المضيء وشعرها الليلي وعينيها الضاحكتين وقد تفتّحت أسفلهما زهرة الفلّ الرقيقة وشفتيها وقد بدتا له وكأنّهما سَنَتَا ولادته ونهديها الشهيين وقد علقَتْ بهما حبّتا رمّان وبطنها الحاسر وقد تربّعت به ياقوتة لولبيّة تشبه سرّة المجرّة، وعندما تمعّن في لوحة «أصل العالم» للرسّام غوستاف كوربي بين فخذيها لم يتمالك نفسه ولم يشأ أن يُفوّتَ فرصة لا تتكرّر، فارتمى في الهواء وتوغّل فيها من أكثر الثقب حميميّة. ولم يمر اليوم حتّى أزهرت في أعماق جسدها الحمّى الطاهرة.

كانت محرزية هي أوّل من يستيقظ في البيت وآخر من يأوي إلى الفراش إذ كانت مشغولة باستمرار بشؤون البيت وبأبناء أخيها الذي هجرته زوجته وفرّت مع عشيقها المهاجر إلى إيطاليا وتركت له ثلاثة أطفال لا يتجاوز أكبرهم العاشرة فما كان منه سوى أن نزح إلى العاصمة ليختفي عن الأنظار بسبب العار الذي خلّفته له زوجته. فمنذ أن تبدأ في أعمالها المنزلية لا تركن للراحة إلا في وقت متأخّر من النهار فمع انشغالها بالأطفال والغسيل والطعام وأعمال الفلاحة في البستان ورعاية الخرفان والماعز والبقرة الحامل والدجاج والحمار والكلاب والقطط والبط، فإنّها مغرمة بالعناية بجسدها ووجهها ويديها وأظافرها إذ لا تتأخّر أبدا عن صناعة الأقنعة للوجه بمح بيض البطّ البريّ والليمون ومعجون المسك والتيفاف وزيت الزيتون وتضعه لمدة ساعة وخمس وعشرين دقيقة قبل أن تغسله بماء العطرشاء المعدّ في البيت والذي تركته على سطح البيت طوال الليالي المقمرة، وهي لا تتأخّر أبدا عن تمسيد كامل جسدها بزيت زهر عبّاد الشمس الأخضر المنقوع في ماء زمزم مُركّزة على يديها وذراعيها وربلتي ساقيها ورقبتها ونهديها ووركيها وهو ما يُحرّك فيها في كلّ مرّة لذّة غامضة وهيجانا طفيفا عادة ما يدركُ ذروة النشوة ثمّ يهدأ بعد آهة مكتومة ما يجعلها تعيد الكرّة في كل يوم بنفس الطقوس وهي لا تتأخّر أبدا في معالجة أصابع يديها وباطن كفّها بأغلى المراهم التي تجلبها لها زوجة أخيها الثاني من فرنسا كلّما عادت لزيارة الأهل كلّ صيف...

كان عذاب كوفيد التاسع عشر يتلخّص في تردّده بين أن يتغلغل في كامل جسدها نتيجة العشق الأسطوري الذي أحسّه والذي سيودي بحياتها، وبين أن يبقى في الجانب المظلّل من الجسد لينعم بحبّ ناقص. وكان على محرزية أن تقاوم هذا الحب بكلّ ما أوتيت من تمنّع.

ومنذ تلك الحادثة لاحظ الأطبّاء أنّ أعراض الفيروس تغيّرت بل إنّ الفيروس أصبح يستوطن جسد المصاب دون أيّة أعراض ظاهرة ممّا جعل منظّمة الصحّة العالميّة تتخبّط في استنتاجات متناقضة جعلت الرئيس الأمريكي دونالد ترامب يقرّر تعليق مساهمة بلاده في ميزانيّتها ويدعو لحقن الناس بالصابون!

- 24 -

الأربعاء 15 أفريل 2020

«لـن يقضـي علـى الفيـروس إلاّ الفيـروس! عندمـا تتمكـن الإنسـانية مـن خلـق فيـروس مضـاد يمكـن أن يقضـي علـى كوفيـد التاسـع عشـر وتتمكّـن مـن التحكّـم فـي الفيـروس الأجـد عبـر صناعـة الأدويـة المناسـبة لـه والتلاقيـح المضـادة لانتشـاره، عندهـا سـتنتصر! ألـم يقـل علمـاء الفيروسـات إنّ الفيـروس يتغيّـر مـن بلـد إلـى آخـر وهنـاك مـن قـال إنّ الفيـروس التونسـي هـو أخطرهـا؟ ألا يمكـن أن نضـع مصابـا تونسـيّا مـع مصـاب إيطالـيّ مثـلا لنـزع فعاليّـة الفيـروس فـي الحالتيـن؟»

كلمـات اسـتيقظتُ علـى وقعهـا وقـد وصلتنـي مـن الحلـم إلـى اليقظـة وكنـتُ أختلـج مـن الحنيـن بسـبب هـذا الصـوت الأنثـويّ الـودود الـذي لا شـك أنّـه يُعبّـر عـن عجـز العلـم عـن إيجـاد الحـل، عندمـا أرادت الانسـانيّة أن يقـدّم لهـا أجوبـة سـريعة. كنـتُ أجلـس فـي مقهـى مـع السـيدة وئـام مديـرة نـادي الأطفـال الـذي يقضّـي فيـه مجـد أوقـات فراغـه أيـن يلعـب كـرة الطاولـة ويتـدرّب علـى لعبـة الشـطرنج ويطالـع القصـص، وكنّـا ندخّـن ونشـرب القهـوة ونتحـدّث حديثـا مُبهجـا ووئـام

هذه امرأة تفيض رقّة وحنانا وكم كنت أشتهي أن أعود طفلا في ناديها. كان نهداها ينبجسان حادّين وردفاها يرقصان تحت ثوبها كلّما تحرّكت من على الكرسي وذهبت إلى كنتوار المقهى أو عادت متّجهة نحوي ذلك أنّها كانت وهي تمشي بخطوات طبيعيّة تبدو كأنّها ترقص... وهو ما جعل الرغبة تتنامى لديّ، رغبة تنضاف إلى أمنية طالما راودتني كلّما لمحت مهرجان ابتسامتها عندما كنت أذهب للعودة بمجد بعد حصّة اللعب، أن أجلسَ إليها فقط للاستمتاع بماء صوتها الذي ينساب مثل اللآلئ التي تتدفّق مثل خيط ماء يجري عبر الجبال ويتحوّل شيئا فشيئا إلى نهر متدفّق بلا ضفاف... لم أعد أفكّر في النادي ولا في سبب عودتي إلى التدخين الذي أقلعت عنه منذ أشهر طويلة ولا في جلوسي في المقهى زمن الحجر الصحّي... كنتُ أفكّرُ في إلقائها على الموكات الناعمة في مكتبها بعد عودة كل الأطفال والعاملات وإغلاق كل الأبواب وعلى وقع أغنية «تعالي للمغني سليم دمق» التي كانت تتناهى إلى السمع من الطابق الأول، كنت أفكّر في مداعبة نهديها وامتلاك جسدها الدافئ والاغتسال في مرح وجهها...

حين فككتُ زرّا من قميصها انتظرتُ أن تكمل هي ما بَدَأتُهُ أنا ولكنّها خيّبت ظنّي. لم تتعرّى ولكنّي أحسستُ أنّها لم تكن تملك رغبة في مقاومتي ولم أستطع أن أدرك هل كان ذلك بسبب عجز سبّبه لها شللٌ عاطفيّ في قلبها وورم جنسيّ في دماغها أم أنّها ترغب أن تكتشف السرّ البيداغوجي الكامن خلف رغبتي. عرّيتُها

وهي تنظر إليّ بعينين حييّتين زادت في الاغراء دون أن تبدي تذمّرا بقدر ما أبدت خجلا إذ غطّت نهديها الذين بدا لي كأنّهما كنزان تمّ اخراج صندوقهما للتوّ من أعماق البحر. وهكذا سيكون في وسعي -بفضل اللغة-الغرق فيهما بعد أن أكون قد لعقتُ بلساني كلّ الجواهر واللآلئ والماسات وكلّ الأحجار الكريمة وأنا أختبر الكنز... نزعتُ من يدها كتاب الشاعر الإيطالي سالفاتوري كوازيمودو (Salvatore quasimodo) «القُبَلُ غطاء النهدين[3]» والذي كانت قد أخذته من درج بجانبها لتغطّي به صدرها وأعَدْتُه إلى مكانه واقتدتُها إلى سرير القيلولة في غرفة جانبيّة كانت المروّضات يتداولن على الاستراحة عليه أثناء حصّة نوم الأطفال بعد الغداء. لم تبدي ممانعة رغم انصاتي إلى صوت داخلي خرج من أعماقها دون أن تحرّك شفتيها «لستُ مستعدّة!»، ولكنّي أحسستُ أنّها وهي ترغب في قولها لم يكن ذلك بدافع تغيير الموقف وإنّما كان تمنّعا من أجل أن أمضي قُدُما في ما ترغب فيه في أعماقها. استلقت على الغطاء الأبيض الذي تلألأ تحت جسدها الحريري الناعم والعاري شددتُها نحوي وكانت يدي تداعب شفتيها وعنقها ونهديها حتّى أدركَتْ من خلال الملامسة أنّ جسدها الرخو هو الذي يقودها خارج كلّ إرادة. كان جسدها يتلهّفُ إلى هجمات يديّ بين فخذيها الرخاميين المرتعشين وكانت أناملها التي تمرّرها على وجهي بتؤدة في شبه ظلام الغرفة كأنّها مُتَقَفّي آثار قارَبَ على العثور على كنز في الصحراء. ثمّ مرّرَتْ أصابعها تتلمّس مؤخّرتي وغرست أظفارها في لحمي

3 عنوان متخيّل

لتستجيب إلى شهوة تأجّجتْ حتّى كدتُ يُغمى عليّ من فرط اللذّة. قبّلتُ شفتيها بتؤدة ثمّ عضضتهما بشفتيّ قبل أن أمصّهما وأنا أحاولُ أن أصطاد لسانها لأمتصّه وكان تمنّعها يزيد في اهتياجي واهتياجها إلى أن بدأت تمتثل لتوزيع الأدوار الجديد إذ لم تعد هي المروّضة وإنّما صرتُ أنا المروّض وهي المرأة التي ترغب في ترويض جسدها على إيقاع تمثيليّة الحب. عندما نزعتُ لها سروالها الداخلي أصبحت عارية تماما تحت ضوء خافت وأشعرها الماء المتدفّقُ منها ببعض الخجل وبدا لها جسدها لأوّل مرّة جسدا استثنائيّا وكنتُ كلّما تحرّكتُ على وقع حركاتها ازداد اهتياجها وسرت اللذّة في جسدينا مثل حقنة المورفين التي تخدّر المسامّات وتأخذنا إلى لذّة غامضة تنتشر بنهم في كل خلايا الجسد دون أن تجد منفذا للهروب لتتحوّل النشوة إلى زهرة سريّة تتفتّح في غمرة هواء الشاطئ الربيعي.

وبعد لحظات ومثل اللهب الذي يرتعش ثمّ يتلاشى اختفت تلك الصورة ووجدتُني مرّة أخرى في المقهى مع وئام وقد تحوّلت إلى أفعى تترصّدُ أوّل حركة منّي لتنقضّ عليّ بسمّها. وكان عليّ أن أظلّ جامدا في مثل هذه المواقف وحيّرتني لامبالاة روّاد المقهى وهم يتصرّفون بطريقة طبيعيّة ويلعبون الورق ويتبادلون الشتائم اللاذعة والصراخ الحضري والعناد البدوي...

حين أفقتُ من النوم كنتُ أتصبّبُ عرقا وقد بدأ طقسُ الربيع يُطلّ من الشرفة بعد ليالي الشتاء الطويلة... جعلني ذلك أشتاق إلى الجلوس في مقهى الصيّادين الشعبيّة التي لم أجلس فيها منذ

أكثـر مـن عشـر سـنوات وأجلـس علـى كرسـيّ أعـرج قريبـا مـن مرحـاض تنبعـث منـه روائـح البـول وأترشّـف قهـوة مـرّة... أشـتاق اليـوم إلـى كلّ ذلـك.

– 25 –

الخميس 16 أفريل 2020

منذ بداية اجتياح فيروس كورونا غالبية دول العالم منذ شهر والسياسيون يردّدون شعار «ما بعد كورونا» وتبعهم في ذلك علماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع والصحفيّون حتّى أصبح هذا الشعار علامة لإحدى البرامج التلفزيّة.

إنّ هؤلاء الذين يردّدون بشكل يومي وفي كل مكان شعار «ما بعد جائحة كورونا» وكيف سيكون العالم ما بعد كورونا، يستبقون الأحداث بشكل ساذج. لأنّ الانسانيّة ستستمرّ في خوض حرب ضد الفيروسات المستجدّة لمدّة عشر سنوات على الأقل ولن يمكننا الحديث على ما بعد الفيروسات المستجدّة إلا بداية من 2029 - 2030!

إذ أثبتَ لنا التاريخ منذ بداية تسعينات القرن الماضي، أنّ التحوّلات التاريخيّة أصبحت تحوّلات عشريّة. فمنذ انهيار جدار برلين سنة 1989 ومقدّمات انهيار الاتحاد السوفياتي السابق عبر اعتماد منظومة البريسترويكا والتبشير بنهاية التاريخ، كان عقد التسعينات عقد تأسيس لحركة تاريخ جديد ستكون حركته

أكثر تسارعا وانتشار تأثيره على كل العالم أشدّ وطأة عبر تصفية الأنظمة الشمولية القديمة في أوروبا الشرقية وتفكيك دول البلقان وانتشار الحروب الطائفيّة والعرقيّة بها وسط تواطؤ الدول الغربية وإعادة توزيع الثروة النفطية في المنطقة العربية وتحصين الكيان الصهيوني عبر اضعاف دول الجوار واستمرّ ذلك إلى بداية الألفية الجديدة وتدشين عقدها الأول بأكثر العمليّات الإرهابية مشهديّة في أمريكا في اعتداءات 11 سبتمبر 2001 على برجي التجارة العالمية، لتكون عشريّة مقاومة الإرهاب ومن خلاله محاربة الإسلام السياسي المتطرّف وذي النزوع الأسطوري باعتبار طبيعته غير العقلانيّة، والذي شكّل في غالب الأحيان تهديدا حقيقيّا على المجتمعات الحديثة في العديد من المجالات.

ومع نهاية العشرية الأولى من القرن الجديد اندلعت من تونس شرارة ما أُطلق عليها ب «ثورات الربيع العربي» التي أدّت إلى انهيار عديد «الأنظمة الجمهورية» القديمة في تونس ومصر والجزائر وموريتانيا والسودان واندلاع حروب أهلية في «أنظمة جمهورية» أخرى كليبيا وسوريا واليمن والعراق دون أن يكون لهذا «الربيع» ولو مجرّد أثرٍ على الأنظمة الملكية! وعدى ذلك، فقد وصل تأثير هذه التغييرات إلى مشارق الأرض ومغاربها بفعل تأثير وسائل الاتصال الأكثر حداثة، ليس فقط عبر الانتقال الحر والسريع للمعلومات المصوّرة والمسموعة والمقروءة وإنّما أيضا عبر انتشارها الآني والتفاعلي وبالطرق المؤثرة في كامل أرجاء المعمورة...

ومـا إن انتهـت الهـزّات السياسـية الكبـرى قبـل أن تسـتكمل دورتهـا حتّـى أدركنـا العشـريّة الثانيـة بانتشـار فيـروس غامـض شـبيه بالديانـات الجديـدة أو الأفـكار المسـتجدة ولـم يسـتطع العلـم تقديـم أجوبـة واضحـة حولـه رغـم أنّـه حصـد بشـكل تراجيـدي أرواح أكثـر مـن مائـة وعشـرة آلاف ضحيـة إلـى حـد اليـوم منـذ ظهـوره فـي الصيـن فـي شـهر ديسـمبر 2019.

ولا شـكّ أنّ هـذه الـدورة التاريخيـة الجديـدة المتعلّقـة بالحـرب علـى الفيـروس المسـتجد سـتتواصل علـى مـدى هـذا العقـد عبـر الانتشـار السـريع لهـذا الوبـاء وعبـر تطـوّره فـي كلّ مـرّة وتطويـر لقاحـات ضـدّه فـي كلّ مـرّة!

لقـد أصبـح التاريـخ فـي زمـن «العولميّـة» (التـي يمكـن اعتبارهـا أعلـى مراحـل العولمـة إن جـاز الأمـر) يتحـرّك علـى إيقـاع التوحّـش الرأسـمالي العالمـي الـذي أصبـح يفـرض هيمنتـه، ليـس بقـوّة السـلاح فحسـب، وإنّمـا بإخضـاع الطبيعـة وتغييـر النَّزعـات الإنسـانية وكذلـك تغييـر أحكامهـا لفائـدة اقتصـاد السـوق عبـر تأليـة الانسـان وصـولا إلـى تغييـر جوهـره مـن خـلال التحكم فـي غرائـزه ونوازعـه عـن بعد وتدميـر البيئـة وتغييـر المنـاخ مـن أجـل مراكمـة الربـح الأسـرع... وهـو مـا أدّى إلـى الارتـدادات التـي تمظهـرت عبـر الارهـاب فـي العقـد الأوّل وثـورة الشـعوب المضطهـدة فـي العقـد الثانـي وظهـور الفيـروس الغامـض فـي بدايـة هـذا العقـد والـذي سيسـتمرّ علـى مـدى السـنوات العشـرة القادمـة علـى أقـل تقديـر...

– 26 –

الجمعة 17 أفريل 2020

لـم أتصـوّر قـطّ أن تدخـل علـيّ سـلمى لاهثـة وقـد علـت قسـمات وجههـا ألـوان الهلـع ممزوجـة بمشـاعر الفـرح. لـم يكـن أمـرا متوقّعـا وليـس مـن السـهل روايتـه:

ـ عادل! عادل أبشرْ

ـ ما الذي يجري؟

ـ لقد نفذت كل كتبك التسعة من السوق بما في ذلك كتابك الأخير «هذا الذي يقوله الجسد» الذي نشرته دار الكتاب في أواخر شهر فيفري الماضي، وليس كتبك فقط هي التي نفذت بل إنّ كل الكتب قد اختفت من المكتبات في وقت قياسي وقد قررت وزارة التجارة أن تتصدّى لعمليّات الاحتكار التي يقودها بعض بارونات التوزيع متحالفين مع دور النشر. وقد تقرّر أن يكون لكل مواطن يوميّا حصّة بكتابين ومع ذلك ظلت الكتب مفقودة إذ أنّها لا تصل إلى الأرياف وإلى المناطق الجبليّة البعيدة...

كانت سلمى مندهشة ممّا يحدث وهي تتفقّد مكتبتنا وتغلق نافذتها المقابلة لنوافذ الجيران خوفا من أن يبلّغ أحدهم الشرطة واشيا باحتفاظنا بأكثر من حاجتنا من الكتب وسعينا لتهريبها من البيت وبيعها في السوق السوداء بأثمان باهضة! لطالما كانت الفضاءات التي تحتلها الكتب في البيت ترهق تفكيرها فقد كانت تسعى باستمرار إلى التخلّص من المكتبة من أجل جعلها في البداية مكانا لوضع الأدباش الموسميّة والتي لا نجد مكانا شاغرا لحفظها ثمّ بعد ذلك انصبّ تفكيرها على تهيئة غرفة لمايا ولم يكن ثمّة مكان صالحٌ لذلك سوى غرفة المكتب. لذلك كان لابدّ من التخلّص من الكتب بنقلها إلى مكان آخر إمّا إلى بقيّة غرف البيت أو إلى بيتنا الصغير في قليبية.

بدا لي الأمر غير قابل للتصديق إذ أنّي منذ بدأتُ النشر كان عدد السحب في كتبي الأولى لا يتجاوز ألفا نسخة وبدأ يتناقص إلى أن وصل في كتابي الأخير الذي نشرته قبيل أن يعود العالم إلى البيت إلى خمسمائة نسخة. كنتُ أقاوم الفشل وراء الفشل وكنتُ أمنّي نفسي بالقول إنّ القرّاء هم الذين فشلوا في العثور عليّ. إذ أنّ دور النشر عادة ما تقوم بطبع الكتاب وتوزّعه على بعض مكتبات العاصمة وفي الحالات القصوى على بعض مكتبات المدن الكبرى... كنت أحسّ بما يشبه اليأس ولكنّي كنتُ أقاومه بمزيد الكتابة ومزيد النشر وكنت أنتزعه من كياني كما ينتزع الجرّاح زائدة دوديّة ملتهبة من جسم الشجرة. وكنت أبتسم أحيانا مرتاحا لما تحقّق من نتائج وكنت أمنّي النفس بثورة ثقافيّة ستأتي

في يوم من الأيّام لتصلح كلّ هذه الانكسارات والاحباطات. ولكن عندما جاءت الثورة من جهة لم ننتظرها ساءت أمور الكتاب أكثر رغم ما تحقّق من حريّة في النشر وفي التوزيع! أمّا أن يتسبّب الوباء في نفاذ الكتب من الأسواق فهذا ما لا يُصدّقه عقلي البسيط

«عليك أن تُصدّق» قالت لي سلمى وهي ترى ذهولي، ثمّ أضافت لقد كان الناس يتزاحمون أمام المكتبات القليلة من أجل الفوز بقليل من الكتب وكان رجال الشرطة والاطفاء ينظّمون الصفوف. وكانت الكتب تتبخّر من متاجر الكتب بسرعة شديدة. مررتُ إلى سوق الكتب القديمة بالدبّاغين فلم أعثر على أيّ كتاب! وقد أعلنت الحكومة أنّها زادت في الإنتاج بالتعاون مع المطابع ودور النشر ولكن الطلب المتزايد على الكتب هو الذي جعل السوق تشهد انخراما في التوزيع وارتفاعا مشطّا في الأسعار. هل تتصوّر أنّ صديقتي حنان أبلغتني أنّها أوصت أحد المهرّبين فجاءها ببعض الكتب القليلة والقديمة ومنتهية الصلوحيّة وأنّها اشترت من عنده مجموعتك الأولى «وطّان القصيدة» التي كانت تباع بدينارين بخمسين دينارا وحصلت على نسخة بالية من مجموعة قصصية لبيراندلو بمائة وخمسين دينارا...».

لم أستطع أن أكذّب حماس سلمى وهي تتحدّث عن نفاذ الكتب من الأسواق... لقد بدا لي أنّ الطبيعة الانسانيّة كانت جشعة وذات طبيعة مزدوجة من الجهل والأميّة لذلك كعقاب لأخطائها تمّ سجنها في البيوت وجعل تفكيرها ينصبّ على القراءة والمطالعة

لمواجهة الفيروس الغامض ومواجهة القلق الوجودي الذي وضعها أمامه هذا الطاعون.

وقد أثبت هذا الفيروس أنّه يمكن أن يكون هناك عالمين تامّين في الطبيعة الإنسانيّة ولهما نفس الحجم: عالم الجوع الذي يهيمن عليه الجهل والحرب والفقر والأوبئة وهو العالم الذي يستعيض فيه الناس عن الكتب بالأكل: أكل كل شيء، النباتات والمعادن واللحوم بما في ذلك اللحوم البشرية... إنّه عالم مذهل لا يتوقف فيه البشر عن التهام الحشرات والزواحف والرخويات والحيوانات الصغيرة والأقل صغرا والحيوانات الكبيرة والأكثر كبرا وإذا لم يجد ما يأكل من هذه الأنواع يقاتل من أجل أكل الحدود التي رسمها كمؤونة ليوم كهذا وأكل حتّى الانحناءات في الروائح المعتادة التي تمتزج فيها المواد الكيميائيّة بفئران التجارب في أقفاصها!

وأمّا العالم الثاني فهو عالم الإشباع أين تصبح فيه المكتبة محرابا سريّا وحرما خفيّا تحيا فيه الأرواح وتنتقل في العالم لتزويد البشر بما يحتاجونه من تصوّرات وأفكار وقيم وحلول لمشكلاتهم... إنّ تلك الأرواح وهي تسعى في الأرض وتسبح في السماوات تتآمر سريّا على عالم الجوع وتأمل باستمرار للإطاحة به.. إنّ هذه العداوة الراسخة التي تجمع العالمين غير المتجانسين هي التي تحرّك التاريخ إذ أنّهما يتمتّعان بمخزونين مختلفين إذ أنّ عالم الجوع لا يعرف شيئا عن فنون الرسم أو عن الشعر أو الفلسفة كما لا يعرف شيئا عن علم العقل الإنساني ولا عن الحب

وفـن ممارسـة الحيـاة والإقامـة فـي الوجـود...

صاحت سلمى من بعيد:

- عـادل! عـادل! عـادل ألـم تسـمع مـا قلـتُ لـك؟ لقـد نفـذ الدقيـق مـن الأسـواق، ربّمـا لـن نجـد الخبـز فـي المخابـز... حـاول أن تتدبّـر لنـا كيلوغرامين مـن الطحيـن وكيلوغرامين مـن الدقيـق حتّـى أعـدّ خبـزا منزليّـا إن لـم نجـد الخبـز! ألـم تسـمع الأخبـار ودعـوات وزارة التجـارة لمقاومـة الاحتـكار؟

فتحـتُ عينـيّ مـن حلـم يقظـة فوجـدتُ سـلمى مازالـت تحدّثنـي بكلمات لـم أستسـغها ونهضـتُ واقفـا وتوجّهـتُ نحـو بـاب الخـروج وقلـتُ: «سـأذهب لأبحـث لـك عـن كتابيـن»!

تركتهـا مندهشـة لا تقـوى علـى الـردّ علـى إجابتـي وأغلقـتُ البـاب خلفـي.

- 27 -

السبت 18 أفريل 2020

«مقال صحفي قصير جدا بعنوان «غابريال غارسيا ماركيز لكم أحسست أنك من جندوبة وبالتحديد من حي المنكوبين».

لو شَاءَتْ اللغةُ لَوَضَعَتْكَ هناك بجانب طفولتي، ووَهَبَتْكَ رُؤًى أخرى، لِتَكْتُبَ ما كنتُ دومًا أفَكِّرُ فيه وأعجزُ عن الإتيان به... لم أكنْ أتَمَنَّى أبدا غيابكَ قبلَ اللِّقاء بِكَ ولكنِّي لمْ أكُنْ مُجْتَهِدًا بِمَا فيه الكفاية تَصَرَّفْ هنَاك بِما يَلِيقُ بالعُظَمَاء وقُلْ للَّذي أحِبُّهُ كَمْ فَاتَنِي أنْ أُبَرْهِنَ عَن حُبِّي الكبير لَكَ، وتَأكَّدْ أنَّ هناك الكثير ستفعله من أجلِ تَعْلِيمِنَا الحِكْمَة حتَّى وإنْ كنتَ هناك! لا تندمْ على ما أضعْتَ من وقتٍ فقط فَكّرْ في طريقة لاسترجاع الزمن في معادلة أخرى. لا شكّ أنَّ أصدقاءَنا العُلَمَاء القَادِمين سَيَسْتَنْسِخُونَكَ ويَسْتَنْسِخُونَنِي لِيُعِيدُونَا إلَى الحَيَاة لأنَّنَا نَحْتَاجُ إلى ثلاثمائة عام قصيرة لنُفْرِغَ مَا فِي أصَابِعِنَا... حَافِظْ عَلى طُقُوسِكَ وبَلِّغْ تَحِيَّاتِي إلى الأصْدِقَاء، حافِظْ بِقُرْبك على مَنْ تحب...».

هذه كلمات كتبتها في مثل هذا اليوم من سنة 2014 عندما علمتُ برحيل روائيّ لطالما اعتبرته من أكبر الشعراء السرّيين الذين يكتبون القصائد والملاحم الشعريّة في شكل روايات وعادت إليّ اليوم في صفحتي بالفايسبوك لتذكّرني بما كتب منذ ست سنوات.

اكتشفتُ ماركيز في نهاية ثمانينات القرن الماضي عندما قرأت له أوّل مرّة روايته الصغيرة «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه» ثمّ قرأتُ له بعد ذلك روايته الأشهر «مائة عام من العزلة» وتتالت قراءاتي لهذا الروائي الفذ «الحب في زمن الكوليرا»، «خريف البطريق»، «الجنرال في متاهته»، «أجمل رجل غريق في العالم»، «عاهراتي الحزينات» وغيرها كثير وصولا إلى مذكّراته «عشتُ لأروي»

ربّما لم تكن رواياته هي أوّل ما ابتدعه روّاة أمريكا اللاتينيّة من رؤى مختلفة عن الرواية الغربية ولكن ليس هناك شكّ في أنّ «مائة عام من العزلة» كادت أن تعصف بكل المنجز الروائي للقرن العشرين وحتّى القرن الذي سبقه. فبنيان رواية تفاصيل تاريخ قرية ماكندو قائم على الامتزاج بين واقعيّة روايات القرن التاسع عشر وسحر الشرق أو لأكن أكثر دقّة سحر وأساطير ومقولات لاعقلية نشأتُ عليها في عائلتي الصغيرة وفي محيطي العائلي الأكبر بين جندوبة والقيروان وهو ما شدّني لهذا الكاتب الذي يتبادر لي أحيانا أنّه كتب رواياته وهو ينصتُ إلى أمّي وهي تحدّثني حين لا أستطيع أن أدرك الفارق الهشّ بين الحلم والواقع. كانت تؤوّل فوران القهوة على الموقد بخبر سعيد سيأتي

إلينا مترجّلا ويطرق باب بيتنا في الساعة منتصف النهار والربع وكان يزورها في المنام جدّنا امْحمّد الولي الصالح ويأتي إليها من القيروان إلى جندوبة ويخبرها عمّن سيموت من أهلها ومن سيولد أيضا وكانت تطلب منه أن يشفي أختي التي باتت ليلتها مصابة بالحمّى فتستيقظ في الصباح كأنّها لم تمرض أبدا... كانت أمّي كلّما هممتُ بالسفر إلى خارج البلاد تضع في جيوبي كمية من الحبّة السوداء لأنّها ستقيني من شرّ الحسد وستمنع الطائرة من السقوط وكنتُ في كلّ مرّة أجد نفسي أفسّر لحرّاس مطارات البلدان الأوروبيّة أنّ ما عثروا عليه بجيوبي ليس سوى تعاويذ يفرضها علينا ديننا!

«لم يحدث لي أن أحببتُ روائيّا وشغفت بقراءته مثل ماركيز» هكذا قلتُ محدّثا سلمى وأنا أقلّبُ الكتب في المكتبة وأكتشف من خلال اليوميّة المعلّقة على إحدى جدرانها أنّ أيّام الأسبوع انقضت كموت بطيء وأتظاهر أنّني أمارس حياتي العاديّة ليوم السبت في حين أنّني ألحظ قلق سلمى المتصاعد وهي تتبادل معي النظرات المتوتّرة وأنا بصدد محاولة إخفاء ارتعادي خوفا وأتمنّى أن تحدث بلبلة كبرى تضع حدّا لهذا الترقّب عندما سمعنا صوت المذيعة يتناهى لنا من التلفزة في الصالون وهي تنقل أنّ منظمة الصحة العالمية «تؤكّد أنّ الظروف أصبحت خارجة عن السيطرة في جميع أنحاء العالم، حيث يستمر كوفيد 19 في حصاد الأرواح في غضب دون أن يتم التمكّن من السيطرة على انتشاره».

خرجتُ إلى الصالون فوجدتُ مجدا يمسك بيد كتابا ويقرأ بصوت عال قصّة «فأر الريف وفأر المدينة» التي يتنافس فيها الفأران على أفضلية عوالمهما ويدحرج بيده الأخرى كرة قماش بينما تقوم مايا بعرض ملابس جديدة أمام جمهور غفير، وحين انتبهتْ لحضوري وأنا أتأمّل مشيتها وهي تقلّد عارضة الأزياء قالت لي «بابا انظر لي وحين أقتربُ منك قل واااوْ» كعلامة اعجاب بما تقدّمه في عرضها

حين اقتربتْ منّي مايا لم أتمالك نفسي من الضحك وحتّى أداري خوفي ممّا يحدث في العالم وانزعاجي من وباء يقترب نحونا شيئا فشيئا صرختُ: «واااو»

- 28 -

الأحد 19 أفريل 2020

بعد الاستماع إلى حوار رئيس الحكومة شعرت بالقلق المتزايد على مصير التونسيات والتونسيين إذ أنّ بارونات الرأسمالية في العالم شرعت منذ مدّة طويلة في الضغط في اتجاه إعادة العمّال إلى مواقع العمل واستعادة الدورة الاقتصاديّة العاديّة حتّى أصبح الحديث عن الاقتصاد أهم من الحديث عن الصحّة العامّة حتّى تمّ شيئا فشيئا تغييب الحق في الحياة كحق مقدّس

وها إنّني الآن في لحظات الفجر الأولى لم أستطع النوم نتيجة الأرق الذي تمكّن منّي خلال الأيّام الأخيرة...

أحزنتني ابنتي مايا ذات الأربع سنوات حين فتحتْ هذا المساء شرفة حجرة الجلوس ووقفت في البلكونة. أحزنتني حين رأيتها تقف حافية القدمين وفردتا حذائها الأبيض كانتا موضوعتين جنبا إلى جنب على منشفة صغيرة خصّصتها مايا كحاملة أحذية pendrier بالقرب من الموقع الذي تقف فيه وكانت تزيح شعرها عن وجهها من حين إلى آخر بسبب الريح الخفيفة التي كانت

تهبّ على فستانها الصغير فترفعه كلما تغيّر اتجاه الهواء

وحين سألتها أمّها:

- ماذا تفعلين هناك يا مايا؟ لماذا لا تدخلين لتلعبي مع مجد؟

- لأنني أنتظر صديقتيّ إلزا وآنا (بطلتا سلسلة صور متحرّكة) لأنّهما وعداني بالمجيء إليّ والانتصار على كورونا...

كانت مايا ترقص الباليه من حين لآخر أمام التلفزة بفستانها الذي اختارت أن ترتديه لهذا الغرض بالذات بطريقة شبه محترفة تجعل أمّها تتساءل باستمرار أين تعلّمت كل هذه الحركات الرشيقة ومتى دخلت إلى مدرسة رقص الباليه؟ أمّا أنا فتجعلني أعتقد باستمرار أنّ الأجنّة في بطون أمّهاتهم يقضّون ما يوازي حياتنا هذه يكبرون ويتعلّمون ويُطوّرون مواهبهم ويعملون ثمّ يغادرون عالمهم المائي إلى عالم اليابسة والبياس هذا!

أحزنني مجد وهو ينتحبُ من حين إلى آخر جرّاء احساسه بالقلق الذي لم أستطع أن أُخرِجَهُ منه لأنّني أشعر بنفس قلقه. قرأنا كلّ القصص ولعبنا كلّ الألعاب وقمنا بالكثير من الواجبات المدرسية وشاهدنا كل سلاسل الصور المتحرّكة والمسلسلات ومقابلات كرة القدم ولم ينته الحصار... يمضي بحركة عبثيّة بين غرفته وبين الصالون ويسألني بين الفينة والأخرى عن التوقيت ولا أعرف أيّ ساعة ينتظرُ...

أجوب الآن أركان البيت: سلمى تنامُ على الكنبة في حجرة الجلوس أمام تلفزة تبثّ بلا توقّف أخبار فرانس 24 عبر شريط ملوّن تسير كتابته بلا توقّف في أسفل الشاشة وفي الكنبة المجاورة لها تنام مايا. أتأمّلهما في صمت وأشعر بالمرارة عبر الوميض الأزرق الذي يُخَلّفهُ جهاز التلفزة ويُزَيّن فراغ الصالة ويكسّرُ هيمنة الصّمت المنهمر من الجهات الأربعة.

دخلتُ حجرة الأطفال فوجدتُ مجدا يتنفّسُ بهدوء وبجانبه تسهر شهرزاد في كتاب «ألف ليلة وليلة». كان عليّ خلال الأسابيع السابقة للحجر الصحّي أن أقرأ له ولمايا قبل أن يناما ليلة من الليالي وكان عليّ أن أحوّر القصّة نتيجة عدم انسجامها مع سنّهما...

قبل دقائق دخلتُ حجرة النوم المهجورة منذ بداية الحجر الصحّي وفتحتُ نافذة من نافذتيها الشرقيتين وأخرجتُ رأسي أطلّ به من الطابق الأوّل على ساحة الإقامة أين وجدتُ سيّارات الجيران مدفونة في قبور متوازية.

لفحني هواءٌ باردٌ ولكنّه مختلطٌ بروائح صدأ لم أتبيّن مصدرها ولم أفهم سبب تسرّبها مع ألوان الفجر الأولى وحاولتُ الاصغاء لكنّي شعرتُ بثقل في السمع أو ربّما هو الصّمم الذي يصيبني هذه الليالي فلم أسمع لا أصوات نباح الكلاب المشرّدة ولا عرير الصراصير ولا زقزقة الخطاطيف ولا حتّى شخير الجار الذي عادة ما كان يتعالى في مثل هذه الساعات من الفجر...

منذ أن ينام طفلاي أدخل مرحلة من الصمم إذ خلافا لصوتهما لم أعد قادرا على الاصغاء لأيّة أصوات أخرى... وأظلّ هكذا إلى أن يستيقظا في الغد لتعود لي حاسّة السمع...

كنتُ أستيقظ عند الفجر عندما أكون متأهّبا إلى السفر أو إلى العودة إلى أرض الوطن وأرتّبُ أغراضي في الحقيبة متحمّسا لشيء غامض وكأنّني أستعدّ لكتابة قصيدة. ولكن مرّ الآن أكثر من عام ولم أسافر رغم أنّي كنتُ على وشك السفر إلى باريس لحضور حفل توقيع كتابي الجديد قبل أن يتمّ تأجيل معرض الكتاب هناك وتأجيل كلّ التظاهرات الثقافيّة وغلق الحدود... سافرت خلال السنوات العشر الأخيرة ولكن حقيبة السفر تشعر الآن بالفراغ الذي أشعر به قبل سفر جديد لا شكّ أنّه سيتأخّر...

لا أشعر بالإهانة جرّاء الحجر الصحّي الذي تعوّدتُ على مثله ولكن أن أرى ابنتي مقيّدة بالأصفاد وابني متشنّجا حدّ أنّ ردود أفعاله عنيفة وهما يلحقان بي أينما ذهبتُ إلى المطبخ أو إلى البلكونة أو إلى مكتبتي أو حتّى إلى الحمّام، وهما يبتكران أنفاسا ضد القلق وضحكات ماهرة يؤجّلان بها دموعي... كلّ ذلك يُشعرني بالإهانة ويدفعني نحو الهاوية...

– 29 –

الاثنين 20 أفريل 2020

أفقتُ هذا الصباح فلم أجد الفيروس!

علمتُ بعد سنوات أنّه اختفى في ذلك اليوم دون أن يترك أثرا يدل عليه. وقام الأطبّاء بالبحث عنه دون أن يظفروا بطائل. لقد ترك الحكومات في وضع حرج إذ تعوزها الآن القرارات الصائبة التي عليها أن تتخذها فعادت إلى التخبّط في الصراعات السياسيّة التي بدأت بها مواجهة هذا الفيروس الغامض...

بدا للسيد كوفيد التاسع عشر أنّ الرغبة لم تتوقف عن إغوائه في أن يكون على رأس حكومة العالم وهو يرغب في اخضاعنا وفي تحويلنا إلى مجرد أشياء ممارسا ضدّنا فن الاحتقار الذي لا يجيده سوى الفلاسفة الذين نفخ الله فيهم من روح القلق! إنّه مُتَعَطِّشٌ لامتلاك جميع السلطات التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة والسياسيّة والقانونيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والدينيّة وغيرها وامتلكها... وحين شعر بالقلق تخلّى عن هذا العرش وهو في ذروة المجد مُلقّنا العالم درسا مفاده أنّ القوّة مهما عظمت وتجبّرت فإنّ لها

قوّة أخرى متعالية يمكن أن تُخضعها. إنّه وهو يتخلّى عن سلطته هكذا بسهولة وبلا أدنى مقاومة لإغراءاتها الساحرة جعل هذا الزهد يبدو مثل الشذوذ الذي لا يحدث أبدا عند بني البشر إلا في الحالات الاستثنائية التي تربك جوهرنا.

لقد وصل السيد كوفيد التاسع عشر في لحظة من تاريخ هيمنته إلى أنْ جعَلَنا نشعر فجأة أنّه مسؤول عن ماضينا وعن حاضرنا وعن مستقبلنا أيضا. ولا أخفي سرّا إن كنتُ أشعر نحوه بالامتنان نتيجة الأمل الذي بدأ يغزوني منذ انتشاره الواسع في كل دول العالم. ذلك الأمل الذي حلمتُ معه بالانفجار، انفجار المشاعر الخلاّقة والأفكار البنّاءة...

لقد توصّل أخيرا إلى حالة من الصفاء التام التي ظل يبحث عنها دون تسرّع وعيناه مغمضتان وهو يتجوّل دون مشقّة في متاهة الانسانيّة كثيفة الظلال وينزع عنها ما علق بها ممّا أحدثته الضغائن والحروب والتدمير الممنهج لمقدّرات الطبيعة بل إنّه بحركة بسيطة أعاد المياه للسباخ الجافّة وأعاد الأسماك المنقرضة إلى أعالي البحار وأعاد الحيويّة إلى الهواء الثقيل وخاط جرح الأوزون الغائر وقدّمه من صور الأقمار الصناعيّة في مظهر أكثر لطفا ممّا كان عليه في السابق من خلال خلفيّة تضمّ غابات الأمازون التي استأنفت الرقص وجبال البيريني التي توقفت عن البكاء وبلاد الأسكيمو التي صار النور فيها نظيفا... وفكّر كوفيد التاسع عشر أو ما أصبح قلمي يدعوه بالقائد في انتهاز هذه الفرصة للقضاء على الطاعون الصناعي الذي زحف على مدى

قـرون بـلا هـوادة وابتلـع الحقـول والغابـات والجبـال والبحيـرات وسـعى إلـى حجـب الكوكـب الأرضـي بدمامـل الشـوارع الإسـفلتيّة والحدائـق المعدنيّـة والسـاحات الصخريّـة وسـعى إلـى حجـب السـماء بطفـح الغـازات السـامّة وسـعى إلـى تدميـر الشـمس وجعـل عظامهـا تتحلّـل فـي تجـارب الأكسـدة التـي لا يتوقّـف عنهـا العالـم المجنـون...

وبعد؟!

ليس هنـاك بعـد! سـنظل فـي زمـن كورونـا لوقـت طويـل وسـنضطرّ للتعايـش معـه لمـدّة سـنة ونصـف علـى الأقـل وسـيبدأ التغيّـر بعـد ديسـمبر 2021!

– 30 –

الثلاثاء 21 أفريل 2020

خرجتُ هذا الصباح من البيت وقرّرت الابتعاد أكثر عن حي الإذاعة عازما على كسر «العزل الصحي» مهما كان ثمن ذلك. كان عليّ أن أمضي لقباضة منّوبة لأدفع آداء معلوم الجولان الذي حل أجله منذ الخامس من أفريل الماضي حين وصلتُ وجدت بابا خارجيّا مفتوحا وحين أدركت البهو وجدت الأبواب البلوريّة مغلقة والأضواء مطفأة... خرجتُ من هناك وتوجّهت إلى مدينة «الدندان» لشراء بعض حاجيات البيت التي قد نحتاج إليها في شهر رمضان الذي سيحلّ يوم الجمعة القادم وما شدّ انتباهي أنّ الشوارع بدت لي مزدحمة وأنّ المحلات مفتوحة وكأنّنا لسنا في زمن الحجر الصحي. الصفوف طويلة جدا أمام البريد وهي طويلة أمام المخبزة والجزار والخضار وبائع السمك والمغازة، طوابير في كل مكان والاستعدادات لمهرجان الاستهلاك الاستثنائي في رمضان تجري على قدم وساق وكأنّنا لسنا في جائحة وبائيّة وهو ما جعلني أشعر بخوف أكبر... هناك من يحمل الكمّامات وهناك من لا يحملها بل إنّي قرأت في ما تتداوله الأخبار أن

أحد أطبّاء الأشعّة استخلص من مقارنة صور أشعة شهر جانفي مع صور الأشعة خلال الفترة الأخيرة أنّ الالتهابات الرئوية التي أصابت المرضى في نهاية سنة 2019 وبداية السنة لها نفس مواصفات التهابات المصابين بالوباء وهو ما جعله يرجّح أن الفيروس بلغ مرحلة الذروة في شهر جانفي وهو الآن في مرحلة تبدّده!

عدتُ إلى البيت وأنا أفكّر في محن الخوف التي عشتها طوال حياتي منذ طفولتي الأولى. كالخوف من سقوط الليل على رأسي وأنا خارج البيت لأنّ أهل جندوبة يقولون بلهجتهم الدارجة ليعبّروا عن قدوم الليل بالقول «الليل طاح» وهو ما يعني أنّه سقط! وكان خيالي الطفولي يصوّر لي أنّ الليل طبقة من المعدن الصلب والأسود الذي يسقط من السماء ليحجب أشعة الشمس ويهبط على المدينة ولن يرتفع إلى السماء مجدّدا إلاّ في الغد... والخوف من عصا المعلّم والخوف على أمّي التي رقدت في المستشفى ولم أبلغ السادسة من عمري والخوف من موت أبي ونحن بلا أهل في جندوبة إذ كان كل أعمامي وأخوالي وخالاتي في القيروان، وحين كبرت كبر معي الخوف وفهمتُ أنّ الخروج عن النواميس قد تكون عواقبه وخيمة كالطرد من نادي المصائف الذي تعرّضتُ له بسبب أنّي لم أقبل أن تتمّ معاملتي بطريقة مهينة أو الطرد من المكتبة العمومية لأنّي مللتُ من جناح كتب المطالعة المخصّصة لتلاميذ الابتدائي أو الطرد من دار الشباب لأنّني لم أكن أملك خمسين مليما ثمن لعب مقابلة كرة الطاولة أو

الطرد من المدرسة لأنّني ألعب في ساحتها الخارجية بالكرة مع أترابي في أيام الآحاد والعطل وبعد ذلك تمّ طردي من المعهد لأنّني لا أفكّر بطريقة أستاذ التفكير الإسلامي الغبيّة ! وحين أدركت السنوات النهائيّة في المعهد فهمت أنّ السلطة قد تلاحقني إن خرجت ضدّها ولا تتورّع في أن تطلق عليّ الرصاص في الشارع وترديني قتيلا... كنت أخاف على موت والديّ حتّى صرت أخاف من موتي على والديّ وخصوصا على أمّي وأنا أتحسّس مشاعر الشهيد التي كان يعبّر عنها مارسيل خليفة في قصيدة محمود درويش «أحن إلى خبز أمّي»، حين يموت ويخجل من دمع أمّه. لقد نشأت في خضمّ السنوات التي كان كلّ شيء فيها يبشّر بالموت وكنتُ كلّما نجوت من مرحلة إلا وحلّت مرحلة أخرى أخطر منها فقد نجوت بأعجوبة من الموت بالحصباء وأنا لم أدرك سنتي الأولى وفي سن العاشرة نجوت من حادث طريق بأعجوبة عندما سرقت دراجة أبي وجبت بها الطرقات وأنا مازلت لا أحسن السياقة بتوازن خصوصا وأني كنت أتمايل حتى أدرك الدواسة بقدمي الصغيرة وأديرها، وفي سن الرابعة عشر نجوت من رصاص الجيش الطائش الذي كان يستهدف الفقراء من الثائرين إبّان انتفاضة الخبز في الرابع من جانفي 1984 وأصابت رصاصة الشهيدة سلوى المفتاحي عوضا عنّي في حي الحفناوي قريبا من بيتنا عندما كنتُ أجوب الأزقّة بحثا عن أخي الذي التحم مع المتظاهرين وبعد ذلك بسنوات قليلة نجوت من مرض الإيباتيت ونجوت من فرق «البوب» الأمنيّة التي كانت

تلاحقنا بمجرّد أن تجدنا نلعب الكرة في الطريق العام... بعدها كنت خائفا من الدخول إلى الجامعة فقد كانت تبلغنا نحن الشباب المطّلع عمّا يجري من أحداث سياسية والمنشغل بالشأن العام والحالم بالثورة في معزوفات فرق البحث الموسيقي والحمائم البيض، أخبار الجامعة والشهداء من الطلبة والمجنّدين قسريا في محتشد «رجيم معتوق» وتواصل ذلك الخوف بعد أن دخلت إلى الجامعة ونجوت مرات عديدة من الاعتقال والتعذيب الذي تعرّض له زملائي وزميلاتي فقط من أجل الرغبة في التفكير الحرّ في غالب الأحيان ونقد السلطة بحريّة والحلم بالثورة وبالحريّة! ولم يتبدّد الخوف حتّى بعد أن تخرّجتُ واشتغلتُ في الإدارة فسرعان ما تمّ طردي من اتحاد الكتّاب بسبب الرغبة في التفكير الحر والكتابة بحريّة وعشت سنوات من الخوف من امكانية قتلي بدم بارد على أيدي كتّاب حاقدين حتّى أنّ صديقي أولاد أحمد ظلّ ذات ليلة يهاتفني كل خمس دقائق وأنا في طريق العودة إلى أن اطمئنّ على وصولي إلى البيت سالما لأنّه شهد معركة كلامية حامية الوطيس في دار الصحفي بيني وبين مجموعة من الأدباء (إن جاز لي أن أسميهم كذلك) وقد حدّث زوجته زهورا عمّا أتعرّض له... إلى أن تم الاعتداء عليّ بالعنف سنة 2009 من طرف مجموعة مسلحة بالعصي وبالأسلحة البيضاء في حادثة ظلّتْ إلى اليوم غامضة الأطوار وقد رجّح الكثير من الأصدقاء أنّه كان اعتداء تأديبيا بسبب قصيدة كتبتها في اليوم العالمي لحريّة الصحافة وهاجمت فيها السلطة التي كانت تسعى لتكميم

حتّى أفواه العصافير التي تزقزق فوق الأشجار ! ولم تمر سنتان حتى أقبلت الثورة وكانت النجاة من الموت أو الإصابة يوم الرابع عشر من جانفي 2011 والأيّام التي تلته بمثابة المعجزة وكان الخوف من التهديدات بالاغتيال التي رافقت عضويتي في هيئة الحقيقة والكرامة هو الذي يسيّر خطواتي وتحرّكاتي وأحيانا مواقفي إلى أن أدركنا هذا الوباء. جعلني الفيروس أشعر لأوّل مرّة بالخوف على المحيطين بي أكثر من الخوف على نفسي، ليس الخوف على زوجتي وابنيّ فقط وإنّما على المحيطين بي في الأماكن العامة من العابرين الذين لا أعرفهم عادة وأصبحتُ أشعر أكثر من أي وقت مضى بمسؤوليتي تجاههم وهو ما نمّى لديّ شعورا إنسانيّا غامضا تجاه أشخاص قد أختلف معهم فكريا أو إيديولوجيّا أو دينيّا وقد أختلف معهم طبقيّا ولكنّي مع ذلك عليّ أن أسهر على صحّتهم وسلامتهم حتّى وإن لم تكن تلك مهنتي أو مهمّتي. فقد أصبحت مسألة واقعيّة محسوسة تلك الشعارات التي عادة ما أردّدها كمعطيات نظرية مجرّدة لا تقبل الترجمة العمليّة بل كأفهوم متعال يتعلّق بإحساس مشترك بين كل الذين ينظّرون لقيم الحق والخير والعدالة والمساواة...

إنّ الإحساس بالخوف الذي ينتابني كلّما عدتُ إلى البيت بعد مغامرة البحث عن الحاجيات الضرورية للاستمرار على قيد الحياة يتخطّى كلّ إحساس شعرتُ به في السابق... تخطّيتُ طوال الأيّام السابقة الحدود المعتادة لتأمّلاتي الماضية حتّى شعرت أنّ في الذعر شهوة حسيّة غامضة جعلتني متّقدا ومتحفّزا لمنازلة كائن

لامرئيّ يمكنني قتله بطعنة غادرة. ولكنّ الفزع لا ينيي يقتحمني كلّما فكّرت في أنّ نزالي مع هذا الوحش قد ينتهي بهزيمتي وهو ما يعني موت طفليّ وزوجتي وأبي وأمّي وإخوتي! إنّ تلك الأحاسيس الشنيعة والغامضة جعلتني أحسّ اليوم وأنا في طابور المخبزة عندما سعلت المرأة التي خلفي بطريقة متكرّرة أنّني في مواجهة الخطر لأوّل مرّة وجها لوجه وسأدفع الثمن الحقيقي لمغامرتي المتهوّرة. منذ بداية انتشار الوباء كنتُ أرفض أن أتخلّى ولو قليلا عن نظام الحماية الذي صرنا نتّبعه بل في الواقع كنت مستعدّا أن أضحّي دون تردّد بكل شيء بما في ذلك حريّتي مقابل عدم التفريط في أي اجراء من إجراءات السلامة التي يجب اتّباعها.

عندما عدتُ إلى البيت في الساعة الثانية بعد الزوال لم أشأ حتّى أن أتكلّم مع سلمى وابنيَّ قبل أن أنزع كل ملابسي وأضعها في الغسّالة وأدخل تحت الدوش الساخن والجدل الداخلي المتّقد حتّى انبعثت رائحة لذيذة هي مزيج من الصابون والذعر... أمضيتُ نصف ساعة ولساني منعقدٌ لا أستطيع أن أخرِج من أعماقي أيّ صوت وأنا أرتعدُ نتيجة الفرضيّات التي تخيّلتها وأصابتني في الصميم وجعلتني أحسّ معها أنّي منزوع السلاح وفرضيّات تشير في مجملها إلى كارثة متوقّعة.

- 31 -

الأربعاء 22 أفريل 2020

«بطء انتشار فيروس كورونا في شمال إفريقيا غير مفهوم» هكذا أعلنت منظمة الصحّة العالمية منذ ساعات وهو ما أعاد لي هدوئي بعد ليلة مضنية من الكوابيس وشجعني على كسر الحجر الصحي...

طلبتُ من سلمى والأولاد أن يرافقوني لشراء اللحم استعدادا لشهر رمضان أو بالأحرى استعدادا لأطول مهرجان للتسوق والاستهلاك مثلما يحلو لي أن أسمّيه. كنّا قد وصلنا هذا الزوال إلى وادي الليل، حيث محلاّت الجزارة التي كانت وجهة غالبية من يملكون سيّارات ويسكنون في قطر خمسة كيلومترات لشراء لحم الأغنام التي ذُبحت للتو وبأسعار تقلّ في غالب الأحيان عن تلك الأسعار الموجودة في بقيّة المحلاّت. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن إمكانيّة وجود محلّ مفتوح بسبب الحجر الصحّي. كنتُ أتصوّر أنّ انغلاق المحلات والصمت المخيّم حولها والمختلط بما تخلّفه الرياح من أكياس وأتربة سيجعلني لن أتعرّف على المكان من الوهلة الأولى. دخلت طريق وادي الليل من الجهة الخلفية

وتركت «الحنايا» على يساري وبدوت وكأنّي عائد إلى منوبة فوجدت في الطريق الرئيسي السيارات بجميع أنواعها وأشكالها سيارات التاكسي الصفراء والسيارات العائلية والشاحنات والحافلات والدراجات البخارية والهوائية كلّها تجوب الطريق جيئة وذهابا إلى أن خُيّل إليّ أنّني في موسم التسوّق في الأيّام العاديّة. كانت المدينة كأنّها مولودة جديدة بعينين كبيرتين وذاهلتين بصوت غليظ وفظّ! في لحظة أحسستُ أنّني الوحيد من بين كل سكّان تونس الذي تعرّض إلى خديعة الحجر الذاتي!

تركتُ الأولاد في السيارة ونزلتُ أنا وسلمى ووقفنا في الطابور وعندما حان دورنا أخذنا ما طلبنا وركبنا السيّارة عائدين أدراجنا. وفي طريق العودة ألمّ بي حنين غامض للنوم في الحقول التي كانت تتراءى لي على جانبي الطريق وخُيّل إليّ أنّني أصبحتُ فزّاعة ماكثة هناك ليلا نهارا وودتُ أن أخلد للموت في تلك المروج الشفّافة التي أشعرني وجودها قربي بالعدميّة.

فكّرتُ في الاكتئاب الذي ينتظرني ما إن تتلاشى هذه الأفكار الجذّابة وتأثيرها الساحر عليّ عندما أجد نفسي مجبرا على العودة إلى البيت. فكّرتُ في أن أواصل حلم الفزّاعة فقد وجدتها وظيفة مناسبة جدّا لي أن أقف يوما كاملا في الحقل أهشّ على الطيور وأستمتع بهواء البريّة وبحريّة النظر إلى السماء ولكن هل سأكون حرّا في الحركة؟ ما أشبهنا بالفزّاعات ونحن موقوفين في بيوتنا! لقد راق لي رغم ذلك أن أكون رجلا لا وجه لي حتى لا تدمع عيناي كلّما حزنتُ ولا ترى الطيور سعادتي بها فتتجرّأ

على الحقل...

وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى مقبرة البيت المنسية أمسكتُ بمقبض الباب الذي بدا لي على شكل نهد حديدي وأولجتُ المفتاح. وعندما دخلنا وجدت ريحا باردة تجوب الغرف ورائحة فحم تحت سقف المطبخ ولم يملك أيّ منّا الشجاعة للبحث عن مصدر تلك الرائحة أو طرح الأسئلة حول مأتاها ولهذا لم يكن بمقدورنا أن نكون واثقين من أنّ أحدا دخل إلى البيت في غيابنا وأشعل كانون الفحم لوضع البخور لطرد الشرور الغامضة... سمعتُ معزوفة جرجيس لرضا القلعي والحاج محمّد اللجمي تتناهى إليّ من الطابق العلوي شبيهة بضحك كأنّه البكاء

– 32 –

الجمعة 24 أفريل 2020

حين أفقتُ كنتُ كمن كان ينامُ تحت السرير ممدّدا على صدري وخدّي على الأرض. رأيتُ أنّني التقيتُ الكثير من أصدقائي الشعراء والأدباء والغريب أنّي كنتُ أخطئُ فأصافحهم بيدي افقتُ فَزِعًا واتّجَهتُ مذعورا إلى الحمّام غسلتُ يديّ بالماء والصابون وعدتُ إلى النوم! رأيت حبيبتي مايا وقد أصيبت بالفيروس وكانت تسعلُ. غيّرتْ سلمى حجرة الجلوس إلى غرفة إنعاش وجعلت فيه نقّالة ووضعت عليه مايا المصابة وقامت بربطها بأحزمة وألبستها زيّا أبيض يشبه ذلك الزي الذي ألبسه توم هانكس لزميله حارس السجن وقيّده به عقابا له قبل أن يدخله إلى الزنزانة الانفرادية في فيلم نسيت عنوانه

كانت تقف أمامها وتداويها وأنا أنظرُ إليهما من فتحة الحلم. كانت تلك الفتحة تشبه شرخا في جدار البيت أو فرجة زرقاء تشبه نافذة دائريّة أطلّ منها على العالم!

وبعد ذلك كان على مايا أن تقبع في الحجر الصحي الالزامي مع مجموعة كبيرة من الأطفال في نزل في المنطقة السياحية بسوسة. ومن أجل الوصول إلى هناك كان لابدّ على العربات أن تحملهم وتجتاز بهم جسر وادي الحجر وهو وادي مياهه قذرة خلال هذه الفترة من السنة بسبب الفضلات الصناعية التي يقوم أصحاب المصانع برميها فيه متجنّبين مصاريف إضافية لمعالجة تلك القذارة ثمّ تنحدر بهم إلى الطريق الحزاميّة وهو طريق الفقر التقليدي مجنّبة أهالي الأحياء الراقية إمكانية إصابتهم بالعدوى ثم تجتاز بهم الأراضي الخلاء والتي تختلط فيها المزابل مع الأحياء على مدى كيلومترات لتصل بهم أخيرا إلى سجنهم الصحّي. ولم يكن ذلك من أجل حماية المحيطين بهم من العدوى وإنّما كان كل ذلك من أجل أن يتمكّن المزوّدون من بيع سلعهم في شكل أكلات جاهزة تدفع الدولة مقابلها أموالا طائلة ويقع الأطفال ضحية التسمم بسببها باعتبار أن تلك العصابات تروّج السلع التي انتهت مدة صلاحيّتها... وكان عليّ أن ألحق بابنتي فوجدتُ أنّ الشمس تخمّرت وأصبحت في شكل متاريس تعيق وصولي... كان يخالجني إحساس غامض أنّ كل هذا سوف ينتهي عاجلا أم آجلا ولكن كان عليّ أن لا أعتاد أيّ شيء وأن لا أطبّع مع أيّ ممارسة حتّى لا أفقد أسئلتي واندهاشي مما يحدث حولي. وبدا لي في لحظة أنّ العالم يمارس لعبة ولكني شخصيّا لا أعرف لماذا يمارسها ثمّ لماذا يمارسها معي أنا بالذات... إنّه عالم محتال يختلق القصص وأنا عليّ أن أصدّقه وأن أخضع لسلسلة من الطقوس الصعبة:

البحث عن ابنتي في أي مصحّة تنفّذ الحجر الصحي، محاولة الدخول لزيارتها عبر اعتماد الأساليب الملتوية التي لا أجيدها، البحث عن وسيلة لإخراجها من هذا المكان الغامض... وفي حال النجاح في اعتماد هذه الطقوس أنضمّ إلى المجموعة ومن ثمّ أخضع لقوانينها الصارمة وهذا يتضمّن خضوعا للحجر الصحي الذاتي لمدّة أربعة عشر يوما ونظاما صارما من التدرّب على غسل اليدين كل دقيقتين ووضع الكمامة على الوجه وتجنّب لمس الأشياء المحيطة بك وشرب الماء باستمرار والتخفيض التدريجي من الأكل وهو ما يجعل الشخص يدرك في ذات الوقت ذروة القوّة وذروة الضعف....

أفقت مختنقا من هذا الكابوس المدوّي وقد استحالت هذه المشاهد إلى ضباب في ذهني وبحثت عن مايا في غرفتها فوجدتها نائمة بهدوء وعندما اقتربت منها لأجسّ حرارتها بكفّي استفاقت مبتسمة لي...

اليوم هو أوّل أيام رمضان لذلك كان علينا أن نستقبله بأخذ حمّام دافئ وكانت تلك لحظة ادراك فظيعة بالنسبة إليّ لأنّني شعرت بالخوف الشديد من انتشار الفيروس بين الصائمين الذين يفقدون مناعتهم مع فقدانهم للاحتياطات الواجبة في ما يتعلّق بالتباعد الجسدي واتباع توصيات الحماية

بعد ذلك وأنا أساعد مايا على ارتداء ملابسها قالت لي بلكنة عسليّة «هل تلاحظ أنّني أحضرت ملابس الخروج لقد ضجرتُ

مـن ملابـس النـوم» .

حـزّ ذلـك فـي نفسـي كثيـرا وشـعرت بمغـص فـي روحـي وقلـتُ لهـا «أظـنّ أنّـه ينبغـي عليـك العـودة إلـى المنـزل فقد طـال تجوالـك خـارج البيـت».

نظـرت إلـيّ باندهـاش ممـزوج بضحكـة مكتومـة قائلـة: «مـا لـك يـا أبـي؟ هـل جُننـت؟».

ـ هذا عيب يا مايا هل تقولي لبابا هذا الكلام.

ـ آسفة يا أبي.

– 33 –

السبت 02 ماي 2020

في الوقت الذي كنت أطالع فيه الأخبار عبر الفايسبوك والتي تتحدّث عن دعوات للانقلاب على منظومة الحكم عبر الاعتصامات في الشوارع وفي القصبة وفي باردو وحل البرلمان والإطاحة بالحكومة، كان الانقلاب يُنفّذ في البيت في غفلة منّي!

دخلت مايا إلى غرفة النوم دون أن ننتبه إليها ووضعت أسلحتها على المنضدة. لم تعترضها أيّة دوريّة أمنيّة أو عسكريّة وكان تسلّلها إلى معقل السلطة سلسا. وحالما دخلت شرعت في تفتيش أقجر طاولة التجميل وفتحت كل علب الماكياج واستعملتها بطرق شتّى حتّى غدا وجهها أشبه بوجه دمية مشوّهة وبعد ذلك قامت بفتح خزانة الملابس وأفرغت كلّ محتوياتها على الأرض مؤسّسة بذلك سوقا لبيع الملابس المستعملة وكانت تنادي على الزبائن الذين كادوا أن يتجمّعوا حولها «بدينار واحد فقط قطعة الملابس».

عندما تفطّنت أمّها لما أحدثته أطلقت صيحة فزع أيقظت نصف سكّان العمارة. من الجهة الأخرى قام مجد بإفراغ كل محتويات

المحافظ الموجودة في غرفته وصنع بها مكتبة للأدوات المدرسية المستعملة وشرع في بيعها...

بعد أن أنّبتهما أمّهما وقامت بإعادة كل شيء إلى مكانه ظلّ ضحكهما المكتوم يتناهى إليّ بعد أن دخلت سلمى إلى غرفة المكتب غاضبة وهي تتوعّدهما بعقوبات قاسية... كانت ريح المساء الباردة تتسرّب من نافذة الصالون والشمس الناعسة تضيء بانعكاسها جدران العمارات المقابلة... مازال الوقت مبكّرا لذهاب الأولاد إلى النوم لذلك قرّرت أن أجرّب حظّي وأتحاور معهما في ما قاما به من شغب.

كانت أرضية غرفة النوم مثل كوّة ضوء في متاهة أزقّة الظلام، حيث ما تزال آثار الشغب الذي أحدثاه تخدش الجدران بأحمر الشفاه والأرضيّة بما تخلّف من أوراق وأقلام. لقد كانت لعبتهما مثل لعبة الحرب التي لا تبالي بما تخلّفه من دمار ومن ضحايا. جلست مايا على أحد الكراسي تراقب حركة أمّها المتوتّرة والمتوعّدة وفي حضنها دبّها القطني الصغير وعلى شفتيها ابتسامة شاردة.

أمّا مجد فكان يجمع أحجار الشطرنج ويعيد نثرها ليجمعها من جديد في حركة لامبالية. تردّدتُ قبل أن أخاطبهما:

- هل أدركتما حجم الخطأ الذي اقترفتماه؟

- نعم يا آبي (مثلما يحلو لمايا أن تناديني) وأضاف مجد:

- ليس لنا ما نلعب وقد شعرنا بالضجر.

- إنّ احساسكما بالضجر لا يجعلكما تقومان بما قمتما به وعليكما أن تتوجّها إلى أمّكما وتطلبا منها الصفح وتعتذرا لها.

لم تكن المهمّة سهلة وكان عليّ أن أتركهما يلقيان عليّ محاضرة مفادها أنّنا لا نحبّهما بما يكفي لذلك نمنعهما من اللعب قبل أن يقتنعا بالاعتذار.

- ماما! ماما لقد أرسلني أبي للعتار لك قالت مايا.

- يعني ذلك أنّك لست مقتنعة بما اقترفت؟

- لا أجيبك لديّ مشاغل أخرى عليّ القيام بها. قالت مايا ذلك ثمّ ابتعدت.

أمّا مجد فقد ارتمى في حضن أمّه يقبّلها ويطلب منها الاعتذار...

كلّ ذلك يحدث في البيت ومازالت التلفزة تنقل أخبار الانقلابات الغامضة التي لم نعرف إلى حد الآن من يخطّط لها ومن سينفّذها ومن المستفيد منها!!!

– 34 –

الاثنين 04 ماي 2020

لقد مرّ اليوم أربعة وأربعون يوما واثنا عشر ساعة على عدم ارتدائي لباسي الرسمي.

بعد هذه المدّة كان عليّ أن أعدّ قميصي وكسوتي وربطة عنقي وأن أمسح حذائي استعدادا للذهاب لأوّل مرّة إلى العمل بعد كل هذا الغياب.

نسيتُ معنى النهوض باكرا إذ عندما استيقظت هذا الصباح كان كل شيء قاتم ونديّ في غرفتي. الأطفال يغطون في نوم عميق وكذلك سلمى، وكانت شمس الصباح تتسرّب بوميضها المشع من ستار النافذة وتحدث فيه فجوات كأنّها شروخ النهار...

كان عليّ أن أمارس طقوسي التي كدت أنساها بسبب الحصار الذي فرضه عليّ الفيروس. دخلت الحمّام وقفتُ أمام المرآة وجدتُ لحيتي مفزعة لا أذكر أنّي تركتها من قبل مهملة كل هذا الوقت... بحثت عن حذائي فوجدته بصعوبة إذ مرّ وقت طويل لم أستعمله، مسحته ثم لبست ملابسي وكأنّني ألبسها لأوّل مرّة:

القميص والسروال والحزام وربطة العنق ثم الجوارب والحذاء وأخيرا وضعت سترتي وألقيتُ بروحي خارج البيت! لم أرَ في حياتي السماء مثلما رأيتها هذا الصباح بزرقتها الرطبة والمشعّة في ذات الوقت. ملأتُ صدري بهواء الحريّة المنعش كمن يتذوّق شرابا مُسكِرًا، تلذّذتُ الهواء النقيّ بما يحمله من طعم الفواكه وطعم الحب في شهر ماي

وكما لو أنّها قبور ملوّنة كانت السيارات رابضة في الموقف ممّا جعلني أتحرّك بحذر وأنا أمرّ بينها للوصول إلى سيارتي وكأنّني أعبر بين القبور وأخشى أن أدوسها... حين ركبت السيارة كان أوّل شيء قمتُ به هو تشغيل الراديو فوجدت أغنية صافية شامية على شط المرسى لاقيتو، فأحسست وكأنّ المرسى تقع في مكان بعيد أو كأنّها منطقة أثريّة تأتي من الزمن الماضي، كلّ شيء توارى خلال فترة الحجر، عندما تحرّكت السيارة بدا لي أنّ الهواء المنعش يخترق كياني وشعرتُ بلذّة السكر وأنا أتنشّق رائحة البحر البعيد. ولأوّل مرّة منذ أن سُجنتُ في البيت هيمنت عليّ رغبة أخرى أكثر واقعيّة وهي أن أعبّ الهواء في كأس كبيرة وأترشّفه كشراب التفّاح الصافي وأتلذّذ عذوبته ونقاءه المسكر... أردتُ أن أغمض عينيّ ولكن تذكّرتُ أنّني أمام المقود وأنّ محاولة كهذه ستكون عواقبها وخيمة.

كنتُ أقطع الطريق المقفر إلاّ من بعض السيّارات وأقتربُ شيئا فشيئا من وسط المدينة وبدا الضوء المنتشر على جنبات الطريق وعلى أشجار غابة البلفيدير مبهرا إذ أنّه ينعكسُ في ذاكرتي

ليجعل طفولتي في جندوبة أكثر رقرقة.

كان النظر إلى الشارع يساعدني على الثرثرة الصامتة وأنا أستعيد الحياة القديمة وكأنّني عدتُ للتو من الموت، لم تترك لي المشاهدات فرصة للتأمّل. فبينما أنظر هنا وهناك وهنالك يمينا ويسار وأعلى وأسفل وأراقب أحجار الرصيف وأضواء العبور وأتفحّص في وجوه بعض المارّة، وحين لا يتوقّع المرء ذلك تمرّ امرأة صحبة طفليها واضعين على وجوههم كمّامات بيضاء! كنت أريد أن أفعل شيئا كأن أنادي الطفلين وأدعوهما إلى لعبة على الرصيف، كأنْ نكوّر أيّ شيء الأحزان أو العزلة أو الصمت ونجعل منه كرة نتقاذفها ونجعل من المرمى المسافة الفاصلة بين شجرتين هرمتين ونضحك حين نسجل هدفا.. لم أكن قريبا منهما ولكني سمعت صوتهما وهكذا سرت من شارع إلى آخر محتفلا بهما كأنّهما كانا ابناي الذين كنتُ سأركض خلفهما في الرصيف وأعلّمهما معنى الهواء النقي ومعنى التنفّس في وطن لم يلوّثه فساد الساسة...

في مثل هذا الوقت كنت أنزعج من ثاني أكسيد الكربون الذي كان لا يدعنا نتنفّس إذ كان يغزو كلّ الهواء وكنتُ أنزعج كثيرا من أصوات منبهات السيارات وزعيق الدرّاجات النارية وصراخ الباعة ونهيق المتخاصمين في الشارع لأجل أتفه الأسباب إذ أنّ الجوع في رمضان هو الذي يحوّل علاقات الناس إلى عداء مستحكم يجعل معركة تنشب بين قبيلتين لأتفه الأسباب، كان ضجيج الحافلات ونواقيس الميترو التي بالكاد تُسمع حين يختلط

بهـا صخـب الشـارع تُزعجنـي...

كانـت أكثـر الأشـياء التـي تثيـر غضبـي واحتقانـي هـي السـياقة فـي العاصمـة مـن أجـل الوصـول إلـى العمـل وعـادة مـا أصـل إلـى المكتـب منهـكا وكأنّنـي كنـت فـي حفلـة قتـال. بينمـا ذهابـي اليـوم إلـى العمـل جعلنـي لا أشـعر بـأي شـيء مـن ألـم الأعصـاب القديـم إذ كان ذلـك أشـبه بالخـروج فـي نزهـة رائقـة.

حيـن وصلـتُ إلـى مربـض السـيّارات فـي نهـج علـي درغـوث قريبـا مـن مقـر جريـدة الشـعب موقـع عمـل زوجتـي سـلمى، وجدتـه مقفـرا. ركنـتُ السـيّارة وأوقفتُ المحـرّك ولـم أشـأ أن أغلـق الراديـو قبـل الانتهـاء مـن سـماع أغنيـة عذبـة للمطـرب محمـد الجمـوسـي «الربيـع» كانـت موسـيقاها تتقافـز مثـل القطـط الصغيـرة التـي تعلّمـت للتـو اللعـب مـع الأشـياء الصغيـرة التـي تحرّكهـا الريـح المهملـة ممّـا جعلنـي موقنـا أنّنـي كنـت أحلـم... ثـمّ وضعـتُ الكمّامـة البيضـاء علـى وجهـي وحجبـتُ بهـا فمـي وأنفـي مثـل طبيـب متمـرّس يسـتعدّ لدخـول قاعـة العمليّـات فـي مستشـفى شـارل نيكـول.

حيـن مشـيتُ فـي شـوارع العاصمـة بعـد غيـاب قسـريّ امتـدّ لأربعـة وأربعيـن يومـا واثنـي عشـر سـاعة أحسسـتُ وكأنّنـي أزور تلـك الأماكـن لأوّل مـرّة فـي حياتـي. دلفـتُ إلـى نهـج أحمـد التليلـي وقطعتـه فـي اتجـاه نهـج الحسـين بوزيّـان ثـمّ أدركـتُ نهـج 18 جانفـي 1952 ومشـيتُ قوامـا وببـطء فـي اتجـاه شـارع الحبيـب بورقيبـة حيـث وجـدتُ الصمـت اسـتفاق مـن فراشـه الحجـري وجـاب بعينيـه

الصافيتيـن تفاصيـل المدينـة.

رغم مروري لسنوات طويلة بين هذه الأنهج والشوارع إلا أنّني انتبهتُ لأوّل مرة أنّ شارع الزعيم الحبيب بورقيبة كان محاطا برفاقه في الحركة الوطنيّة.

كانت أغلب المحلاّت مغلقة وكانت تفاصيل مقهى باريس قد تلاشت مع صرخات السكارى وضجيج المجانين وعواء العشّاق والاستمناء في المراحيض السفليّة ولم يبق منها غير صدى كلمات الصباح تتحاور في ما بينها. وفي الشارع الرئيسي الذي قضيت فيه ثلاثين سنة كان عليّ أن أنتبه لأوّل مرّة إلى الزوايا المألوفة والأشكال الجميلة، كانت حواسي تمتدّ إلى كلمات حديديّة مكتوبة بالأحمر I love Tunisia تحت تمثال ابن خلدون حيث كانت تتشابك مع السوّاح وملتقطي صور الذكريات بهواتفهم...

كانت تعرّجات تمثال ابن خلدون وتشابك زوايا الكتاب تبدو لي وكأنّها هدير صامت لشمس بلا غسق. كانت عناصر الطريق تواصلُ ثرثرتها الصامتة بطلاقة: الأشجار الخضراء، الأبواب الحديديّة، مفاتيح سلامة الأبواب الالكترونيّة المعلقة على جدران المحلاّت، كاميرات المراقبة، سيّارة الشرطة، واجهة البنك البرتقاليّة، نوافذ نزل الهناء الدولي، بلّور زجاجة ويسكي أسفل الرصيف، واجهة محل صرافة، مكتبة الكتاب، باب مقهى الكون المغلق، كلّ ذلك شكّل دائرة تترنّح على وقع موسيقى تدندن عميقا في الروح. حدّقتُ في ما كان عليه الكون: الأسرى والجوعى

والغنائم ولم أشأ أن أفسد عليّ الإحساس بالبهجة بتذكّر مأساة ما مضى وسرعان ما اجتزتُ ممرّ نهج عاصمة الجزائر المكسو بالظلال البيضاء ودلفتُ إلى شارع الحبيب ثامر. وأنا أسير باتجاه مبنى الإدارة الذي ظهر لي جاثما على ركبتيه مستعدّا لاستقبالي، تملّكني شعور نادر وأنا أحدّق في الوجوه القليلة التي تمرّ متباعدة «لقد استغرق الأمر أربعة وأربعون يوما واثنا عشر ساعة حتّى أفهم معنى «صباح الخير يا صاح، صباح الخير يا خالة، صباح الخير أيتها الحياة، صباح الخير أيها الهواء المنعش، صباح الخير أيتها الحريّة...».

عرّيتُها وهي تنظر إليّ بعينين حييّتين زادت في الاغراء دون أن تبدي تذمّرا بقدر ما أبدت خجلا إذ غطّت نهديها الذين بدا لي كأنّهما كنزان تمّ اخراج صندوقهما للتوّ من أعماق البحر. وهكذا سيكون في وسعي - بفضل اللغة - الغرق فيهما بعد أن أكون قد لعقتُ بلساني كلّ الجواهر واللآلئ والماسات وكلّ الأحجار الكريمة وأنا أختبر الكنز... نزعتُ من يدها كتاب الشاعر الإيطالي سالفاتوري كوازيمودو (Salvatore quasimodo) "القُبَلُ غطاء النهدين[1]" والذي كانت قد أخذته من درج بجانبها لتغطّي به صدرها وأعَدْتُه إلى مكانه واقتدتُها إلى سرير القيلولة في غرفة جانبيّة كانت العاملات يتداولن على الاستراحة عليه أثناء حصّة نوم الأطفال بعد الغداء.

---

[1] عنوان متخيّل.